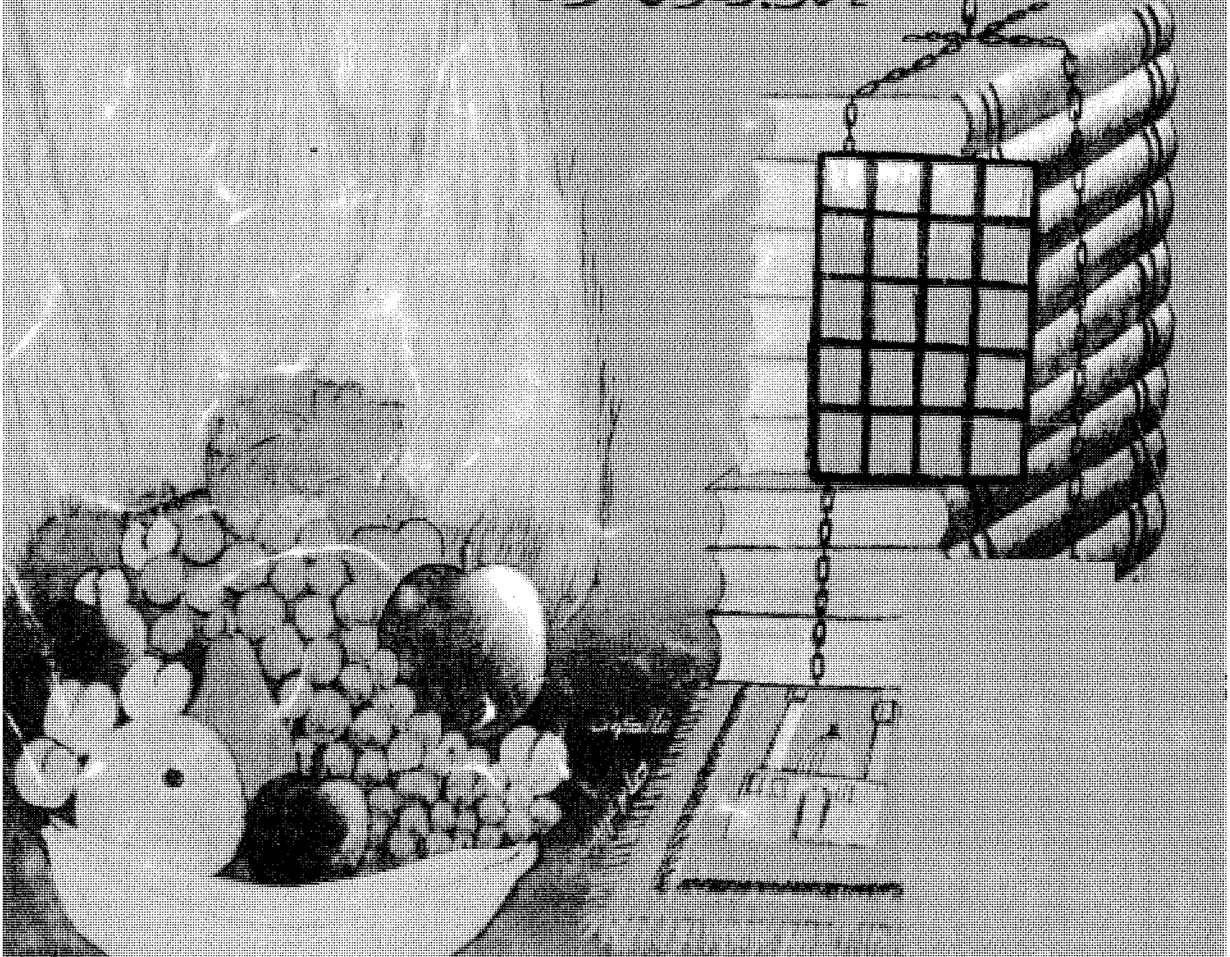
الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

إعداد:
محمد عبد الرحمن عوض



الدنيا سجن المؤمن
وجنة الكافر

تأليف
محمد عبدالرحمن عوض

قال الإمام على رضى الله عنه :
« من هوان الدنيا على الله : أنه لا يُعصى إلا فيها
ولا يُنال ما عنده إلا بتركها »

نهج البلاغة جـ ٤ صـ ٩٣

دار الكتب العلمية للنشـــر والتوزيع
٢٠ شارع السبع - إمبابة ت : ٣٤٤٠٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد:

فإن القارئ للقرآن فى تدبر وإمعان يقف على الكثير من الحقائق التى تجلو النفس وتطهر الفؤاد ، وتربط بين الإنسان وخالقه . فالقرآن نور وهداية يوضح الطريق لذوى البصائر النيّرة ؛ كما أن السنّة النبوية قد زادت الطريق وضوحاً وبياناً فهى التفسير للقرآن ، وفيها الكثير من البيان ، وكأنى بالسنّة ـ وهى لسان حال النبوة ـ تزيد الحقائق وضوحاً وبياناً ، وبذا يجتمع للمؤمن - بالقرآن والسنة ـ بعض معالم الزمن الأول وصدر الرسالات ، فيعيش الهدى الأول ويسلك بهما ـ أو يحاول ـ سلوك الصحابة ، في ظلال الرسالة وهداية أكرم الخلق محمد ﷺ .

ومن الحقائق التى كشفها القرآن ووضحتها السنة : حقيقة الحياة الدنيا .

ولقد توقفت طويلاً أمام هذه الحقائق الناصعة ، وحاولت ـ بعد محاولات الفهم ـ أن أنقل ما استقر فى ذهنى وضميرى إلى إخوانى من المسلمين أذكرهم بالحقائق عساهم يتذكر منهم من أراد الله به الخير فيعود إلى جادة الصواب .

ومما حدانى إلى ذلك ما لمسته فى حياتنا من حرص زائد على الدنيا ، فالكل ـ تقريباً ـ متعلق بزينتها ، راغب فى الاطمئنان إليها ، وكأنها دار المقامة والخلود وما هى فى حقيقتها إلا معبر وقنطرة إلى الآخرة . إنها تلك الدار التى أهبط اليها آدم عقب العصيان : (قلنا اهبِطُوا منها جميعاً ، فإمَّا يأتينَّكم منى هُدىً فمن تَبِعَ هُدَاى فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) (البقرة : ٣٨)

وهى دار الصراع (وقلنا اهبطُوا بعضكم لبعضٍ عدوٌّ ولكم في الأرضِ مُسْتقرٌّ ومتاعٌ إلى حينٍ) (البقرة : ٣٦)

والدنيا مرحلة انتقال ، ومزرعة للآخرة (قالَ فيها تحيونَ وفيها تموتُونَ ومنها

تُخرجُون) إنـها ـ إذن ـ ليست دار بقاء بل هـى دار ابتِلاء وفناء وهبـوط وصراع فما بالنا قد نسينا حقيقتها ؟ وما بالنا نبنى ما لانسكن ؟ ونجمع ما يفنى ؟ وما بالنا نؤثر الفانى على الباقى ؟ ولقد نسينا أن القرآن نعى على قوم أهلكهم الله تعالى لما تمسكوا بالفانى ، وتركوا الباقى فأدّاهم ذلك إلى التجبر والبطش والطغيان : **(أتَبْنون بِكلِّ رِيعٍ آيةً تَعْبثُون ؟ وتتَّخذُونَ مصانعَ لعلكم تخلدون ؟ وإذا بطشْتم بَطَشْتُم جبَّارين ؟ فاتَّقُوا اللهَ وَأطِيعُونِ)**

(الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣١)

ولقد رأيت أن أذكِّر نفسى بأحوال الدنيا وأنقل التذكرة إلى إخوة لى فى الإيمان عسى الله أن يعفو عنا ...

وإذا كانت الدنيا مشتقة من الدنو والهبوط فلقد أنزلها القرآن منزلتها : فهى لعب ولهو ، وزينة وتفاخر ، وهى متاع الغرور . كما أن السنة بينت حقيقتها ، وتأمل ذلك المشهد الذى روى فى قصة الإسراء والمعراج حيث تمثلت الدنيا للنبى ﷺ على هيئة امرأة عجوز شمطاء وقد تحلت بزينة كثيرة ، فحقيقتها واضحة ، وعمرها قصير ، وزينتها خادعة وقد أعرض النبى ﷺ عنها حين نادته .

وتأمل ـ أخا الإسلام ـ قصة قارون وما لحقه من خسف وعذاب حين أغرته الزينة بالطغيان ، حتى اغترَّ به قصار النظر وقالوا « **ياليتَ لنا مثْلَ مَا أوتى قارونُ** » وتأمل قصة صاحب الجنتين فى سورة الكهف ذلك الذى دخل جنته وهو ظالم لنفسه **(قال ما أظُن أنْ تبيدَ هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ، ولَئن رُدِدتُ إلى ربِّى لأجِدَنَّ خيراً منها مُنْقَلباً)** (الكهف : ٣٥ ، ٣٦)

فماذا كانت النتيجة ؟! .. لقد لحقها الدمار ولحقه العذاب .

وقصة أصحاب الجنة في سورة القلم : **(إذْ أقْسَمُوا ليصرِمُنَّها مُصْبِحين ولا يَسْتَثنون..)** [1] (القلم : ١٧ ، ١٨)

فماذا كانت النتيجة ؟ **(فَطافَ عَلَيْها طَائِفٌ من ربِّك وهم نائمون فأصبحت كالصَّريم)** [2] فضاع جهدهم ، وخاب سعيهم حين منعوا حقوق المساكين فيها ، وغير ذلك من العبر والمواعظ كثير كثير .

---

(١) يستثنون : أي لا يتركون بعض ثمارها للصدقة .

(٢) كالصريم أى تلف ثمرها فصارت كأنها قد جنى ثمارها .. فلم يعد له أثر .(سورة القلم : ٢٠) .

إن اللافت للنظر أن الدنيا ليست للمؤمن بدار ، ولكنها مزرعة ، ولقد قيل : **«إن الدنيا كسوق انتصب ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر »** فلا يليق بالمؤمن أن يدع أمر آخرته لدنياه ، فيعمر ما يترك ويجمع لغيره . والمرء متعلق بالمال ، فمن قدم ماله أحب آخرته كي يلحق بما قدم ، ومن أخّر ماله تعلق بدنياه حيث يكره أن يفارقه .

والمؤمن يزرع في دنياه ليحصد الجزاء الأوفى في أخراه ، وأما الكافر فإنه حين يأتيه أجله يصرخ قائلاً (**رَبِّ ارْجِعون لعلّي أعمَل صالحاً فيما تركت**) (المؤمنون : ٩٩) ويجاب (كلاً ...إنها كلمةٌ هو قائلها) بل ويظل يصرخ وهو فى النار (**ربَّنا أخرِجْنَا منها فإنْ عُدنا فإنَّا ظالمونَ**) (المؤمنون : ١٠٧)

ويأتيه الجواب من المولى سبحانه :

(قال اخْسئُوا فيها ولا تُكلِّمون) (المؤمنون : ١٠٨)

إن مثل هذه الآيات كثيرة في القرآن ، وإنما ذكرت طرفاً منها للتذكر .. ومن ينظر فى حياتنا الحاضرة يجدها مليئة بالمتاع كما تتنوع فيها زينة الحياة الدنيا. إننا لا نشكو الجوع كما كان يشكوه أهل الصُّفة على عهد رسول الله ﷺ فقد كان الواحد منهم يربط الحجر على بطنه أياماً ، بل وكان يصاب بالصرع مما يعانيه من الجوع وقد روى هذا عن أبى هريرة رضى الله عنه ...

إننا لانشكو مرارة الحرمان ، فغالبيتنا لديه ما يكفيه .

إننا نشكو من أجل المزيد . إننا نريد المزيد من المال .

ونطلب المزيد من الراحة . ونطمع في المزيد من الترف .

إن صاحب البيت فينا يطلب قصراً ، ومن عنده بعض الوسائل الحديثة من وسائل الترفيه يطلب المزيد ، ومن امتلك سيارة يتطلع إلى رصف الشوارع ومن تعلم طمع في وظيفة ، والموظف يتطلع إلى الترقية والثروة . والمحال إلى المعاش يود أن تمتد خدمته ... وغيره يريد أن يعمل فى مشروع استثماری ولو تركت نفسى لاسترسل القلم إلى شتى النواحى.

وباختصار .. فقد أصبح فينا صفة من صفات جهنم ـ والعياذ بالله ـ حيث تقول (**هل من مزيد ... ؟؟**) .

وحتى لا يؤخذ الأمر علىّ أبادر فأقول : إننا لا نعلم قوماً عضّهم الفقر ، وأكلتهم الحاجة حتى عجزوا عن الوفاء بمطالب الحياة ، ولكن الذى أعجزهم ذلك

التيار الجارف من المطالب الاستهلاكية القاتلة .

ولهذا أردت أن أذكّر .. فقد سقت الأحاديث والآيات أمام كل ناظر ومفكر، حتى ندفع عن أنفسنا الغفلة والنسيان ، وحتى لا نقع تحت طائل قوله تعالى: (**فلمّا نسُوا ما ذُكّروا به فتحنّا عليهم أبْوابَ كلّ شيءٍ حتى إذا فَرِحوا بما أُوتوا أخذْنَاهم بغْتةً فإذَا هم مُبْلسُون**) (الأنعام : ٤٤)

هذا ، وقد رضيت أن أسوق الحديث والآية أمام القارئ وذلك كمنهج وأسلوب للإقناع ، وهذا منهج أرجو أن يفيد به القارئ ، فإنني لا أتحدث للقارئ عن أفكاري وتطلعاتي ، ولكني أحدثه بلسان الشريعة والتنزيل وجاء تعليقي على الآيات تنبيهاً وتوجيهاً ، وهذا يعطي القارئ المزيد من الحرية في المشاركة الفكرية ، فهو أمام نص قد تكون له وجهة نظره في تفسيره ، وتخريجه وقد ركزت حول موضوعات وجدت فيها الأهمية منها حقيقة الدنيا ـ وخطر التعلق بالدنيا / والزهد فيها / وخطر الترف وحدود الضرورة وغير ذلك من موضوعات طرقتها الأحاديث مبيّنة لآيات من القرآن ومفصلة لها ..

أسأل الله العليّ العظيم أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي وميزان حسنات من يقرؤه .

هذا وباب الحوار مفتوح حول ما جاء بهذا الكتاب فمن رأى فيه رأياً فلا يكتمنا إياه عسانا أن ننتفع به .

وأخيراً فإن كنت أصبت توفيقاً فمن الله ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والله غفور رحيم .

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

المسلمون والدنيا

عندما بدأت دعوة الإسلام كان النبي ﷺ فى مكة يدعو إلى الله . ومعه قلة قليلة من المستضعفين ، وقد بلغ بهم الجهد مبلغه ، فقد طاردهم القوم حتى أعلنوا وثيقة المقاطعة المشهورة وحُبس المسلمون فى الشّعب سنوات ثلاث لا يتعامل معهم أحد إلا فى الأشهر الحرم .

وقد أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فتبدلت الأحوال ، وانتصروا على عدوهم ، ووعدهم رسول الله ﷺ . أن الله سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر وكان يخاف عليهم فتنة السراء... فهى فتنة تأخذ بالألباب يستنيم لها الإنسان، ويركن لحلاوتها ...

ومعروف أن الدنيا سجن المؤمن ـ مهما ترفّه فيها ـ وهى جنة الكافر ـ مهما قل حظه من زينتها .. وقد حدثنى صديق أثق به .. عن حكاية أود أن أعيدها لما فيها من توضيح لهذه الفكرة : فقد قيل : إن يهودياً مر بالإمام الشافعى رضى الله عنه ، وكان اليهودى يسعى مجهداً خلف حماره يحمل الزيت وثيابه قذرة وحاله لا يسر ، ولما وجد اليهودى الإمام في ظل وارف وثياب نظيفة وراحة ظاهرة . توقف وسأل الإمام : كيف يقال إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر؟ (يشير إلى ما فيه الإمام من نعيم ، وما هو فيه من جهد جهيد) وكأنه يلمح للإمام أن الكلام غير واقعى ، ولو كان واقعياً لكانت الراحة لليهودى ، والإجهاد والتعب للإمام انتظاراً لما يكون له من نعيم فى الآخرة ، فقال الإمام : نعم : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فإن ما أنا فيه بالنسبة لما ينتظرنى من نعيم يعتبر سجناً .. أما إذا عرفت ما ينتظرك من عذاب لعلمت أن ما أنت فيه من الدنيا جنة .

فالدنيا سجن المؤمن ، وقد نعى القرآن ـ كما رأينا ـ على الذين تعلقوا بالدنيا وجعلوها نهاية آمالهم ، ومنتهى غاياتهم .

إن المؤمن مطالب بالعمل ، ولا بأس في الثروة ما دامت من حلال ، ولا يضره أن يتمتع بالطيبات من الرزق ، ولكن يضره أن يجعل ذلك هدفه ، وينسى آخرته . وإذا كان المؤمن فى سجن الدنيا فقد فرض الله الجهاد حتى ينتصر على ذلك السجن ، والجهاد سبيل ردع الكافرين ، وهو سبب رد الظالمين عن ظلمهم حتى

لا يتضاعف الظلم ويتكاثر الضيق على المؤمنين .

فالظالمون لو تُركوا وشأنهم دون جهاد لأذلوا المؤمن ولفتنوه عن دينه ، قال تعالى : **(وقَاتِلُوهم حتى لا تكونَ فِتْنَةٌ ، ويكونَ الدينُ كلُّه لله فإن انْتَهَوا فَلاَ عُدْوانَ إلاَّ علَى الظَّالمين)** (البقرة : ١٩٣)

إن المؤمن لا يعيش للدنيا ، ولكن يجب ألا يترك الظالمين يتحكمون في مصيره ، ويدبرون له أمره . فتكون الطامة والفتنة الكبرى .

والمؤمن يواجه المخاطر من كل جانب .. والكل يريد أن يفترس إيمان المؤمنين فهذا أمر الكافرين مع المؤمنين وضّحه لنا القرآن ، قال تعالى : **(ودوا لو تكْفُرون كما كفروا فتَكُونون سواء ..)** . (النساء : ٨٩)

* وأما أهل الكتاب فحالهم أشد وضوحاً لأنهم أكثر حرصاً على فتنة المؤمنين قال تعالى : **(.. ولَنْ تَرضى عَنْكَ اليَهُودُ ولاَ النَّصارى حتى تتَّبعَ ملَّتَهم)**

(البقرة : ١٢٠)

النفاق مرض ينهش جسم المجتمع فى سكون وصمت **(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنَّما نَحْن مستهزئون)** (البقرة : ١٤)فى آية أخرى : **(وإذَا لقُوكُم قَالوا آمَنَّا وإذَا خَلَوا عضُّوا عليكم الأنَامل من الغيظِ)** (البقرة : ١١٩)

وأمام هذا الحشد من الأعداء الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر يتسلح المؤمن بالقوة حتى لا يضار فى دينه قال تعالى :

(وأعدّوا لهم ما استطعتم من قُوةٍ ومن رباط الخَيْل تُرهِبُون به عدوَّ الله وعدُّوكم وآخرين من دونهم لا تَعْلمونهم اللهُ يَعْلمهم) (الأنفال : ٦٠)

فإذا ما احتدم الخطر وأحدقت الأعداء بالمسلمين كان لابد من الدفاع قال تعالى : **(وقَاتِلُوهم حتَّى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)** [1] ولقد اختط المسلمون الأوائل سنة الجهاد ، فاطمأن لهم دينهم وصلح لهم أمر دنياهم .

وأرى إخوة لهم اليوم غابت عنهم سنة الجهاد ، ووضعوا السلاح فأخذوا في دينهم ، وأذهلتهم الأحداث عن إيمانهم واضطربت بهم دنياهم ، فتكاسلوا عن الدين ، وتهافتوا على الدنيا ، فضعف عندهم وازع الدين ، وما صلح لهم أمر الحياة .

---

(١) البقرة : ١٩٣

فإن من ضيّع الدين أو استخف بتعاليمه ضاع منه أمر دنياه (**خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخُسْرانُ المبين**) . (الحج : ١١)

عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه . فآثروا ما يبقى على ما يفنى** » (١)

ولقد عشنا هذا الزمان تحت ظلال قيم ومبادئ وخيمة فلقد ذُلّلت كثير من القوانين الطبيعية للإنسان ، وتحكم العلم في الكثير والكثير من الأمور ، فتعلم الإنسان كيف يبنى البناء الشاهق المتعدد الطوابق ، وكيف يزوده بالمصاعد الكهربائية ، ويفرشه بمختلف أنواع الفرش والبسط ، ويمده بالأجهزة التى تتحكم في الجو فتجعله رطبا منعشاً في الصيف ودافئاً هيناً في الشتاء ، وسخر الكهرباء لتشغيل الأجهزة التى تمتع حياته وأمدت حياته بكل ما يصبو إليه ، وتخصص المهندسون في زخرفة المساكن حتى تحولت إلى متاحف وربما مزارات ، وجعلت الأسرة تدعو غيرها من الأسر التى تعرفها إلى الزيارة كى تطلعها على ما استجد فى حياتها من زينة وزخرف . وصار ما ينفق من أموال في زخرفة المنازل وكساء أرضياتها وحوائطها ونوافذها آلافاً اجتمعت فصارت ملايين بل ملايين الملايين ، فما من شاب يرغب في الزواج إلا ويجهز بيت الزوجية (شقة الزوجية) بما لا يقل عن خمسة آلاف أو عشرة آلاف من الجنيهات .

نعم : فى مثل هذا الجو وتحت تأثير تلك القيم يظهر اتجاهان متناقضان :

* القادرون .. عن سعة أو عن جهد وكفاح ...
* العاجزون المعدمون ...

وفى ظل هذين الاتجاهين ينبت الصراع الداخلي ، بين حرص القادر وطمع العاجز .. وانتقل الجهاد والصراع إلى الداخل .. إلى المجتمع ... وفي هذا الجو يغيب داعى الجهاد ودوافعه .. فمن يجاهد ؟ ولماذا يجاهد ؟ ... إن مساحة التفكير صارت مشغولة عن الموت والجهاد والعمل للآخرة .. إلا في القليل النادر فمن صارت حياته هينة طلب المزيد ... ومن أصيب بالقحط والعدم تطلع إلى الفرج والسعة ...

والجميع يدور في فلك الماديات والمخترعات الحديثة .. وهى مصدر النعيم ،

---

(١) رواه أحمد ورواته ثقات قاله المنذرى جـ ٤ صـ ٣١٧ .

والغرب مصدر المساعدات والقروض .. وعنوان الرفاهية والاستقرار فمن يجاهد ؟ لم يعد فى المنظور القريب إلا جهاد المجتمع والثورة والانقضاض على المسلمين .. بشتى أنواع الثورة والانقضاض :

* قام البعض بإعلان تكفير المسلمين وأوجب حربهم ..

* وأوجب آخرون الهجرة من المجتمع وترك السفينة ..

وهؤلاء استتروا بجانب الإسلام والتمسك به ، وثار على المجتمع المسلم من هو أخطر : فنتج عنه آثار وخيمة :

* تهاون المجتمع فى أكل الربا وتعاطيه . * تهاون المجتمع فى عرى المرأة .

* تهاون المجتمع فى ألعاب القمار .

* كما تهاون فى الخمور وصارت تجارتها قانونية رسمية فى بعض الدول التى تدين بالإسلام . * تكاسل المجتمع عن فريضة الزكاة ، وتركت للأفراد من شاء أن يدفعها دفعها ومن لم يشأ فله ما أراد ، ولقد كان رسول الله ﷺ يجمعها ويقيم عمالاً لجمعها ، كما حارب الخليفة الأول من رفض أداء الزكاة إليه مع بقائهم على الإسلام ، وظلت الزكاة يجمعها الوالى وينفق منها على شئون الدولة حتى غلبت الدنيا ، فاهتم الحكام بالضريبة ولم يلتفتوا للزكاة .

* وتكاسل الأفراد - بعد ذلك - فى الأعم الأغلب عن الصلاة فى جماعة .

* كما ظهرت اتجاهات تهادن الأفكار المضادة للدين وظهرت أخرى تتبنى الاتجاهات الملحدة الكافرة كالشيوعية وغيرها .

ومظاهر كثيرة نشأت في ظل هذا الواقع الوخيم .

والأمر الذى يشغلنى أن أمر الدنيا حين يزداد يستعبد صاحبه فيشغله عن دينه ، ثم لا يتم له أمر دنياه .

ولكن ما الحل ؟ ......

إن الحل يكمن فى نفس الإنسان ... وإرادته .. هل يريد أن ينجو ؟ أم لا ؟ والنجاة لها وسيلتها .. بمعرفة حقيقة الحياة الدنيا ، والعاقل لا يقدرها أكبر من قدرها .. ولا يدع نفسه نهباً للأهواء وصيداً للشيطان .

وإذا كان باب الجهاد غير ميسور .. فجهاد النفس باب واسع والمسلم لابد أن يعى حقيقة الدنيا ، ومكانه منها ، وحدوده فيها ، وهى حدود جديرة أن يفهمها

كل الناس إلا أن الإسلام يميز أتباعه يبين بجلاء الحقائق لهم إذ يضع أيديهم على جوانب الحقيقة في وضوح ، والقرآن يبين ذلك وتأمل قوله تعالى :

* (وسخّر لكم الأنهارَ وسخّر لكم الشمسَ والقمَر دائبيْن وسخر لكم الليل والنهار) (١)

* (ألمْ ترواْ أنّ اللّهَ سخّر لكم ما في السّموات وما في الأرْض ..) (٢)

* (وسخّر الشمسَ والقمرَ كُلٌ يجرى إلى أجلٍ مُسمّى ..) (٣)

وكثير من الآيات تركز على هذه الجوانب التى تجعل الأرض ومظاهر الكون فى خدمة الإنسان كما قال تعالى : (**هو الذي جعلَ لكم الأرْضَ ذَلُولاً فامشُوا في مَناكبها وكلوا من رزقه ..**) (٤)

وتأمل التعبير بقوله : « سخر لكم » .. وقوله .. « جعل لكم .. » لتتبين حقيقة الكون بالنسبة للإنسان .. إن الكون خادم مسخر لا يتبرم بعمل ولا يتكاسل في الأداء ولا يبخل بالعطاء .

وهكذا لا نزال نستمتع بدفء الشمس وطاقتها كل يوم ، ودورة الأرض لا تكف والرياح لا تزال تجرى وتهب عاصفة مرة ورقيقة مرة أخرى ... لها دورها الهائل في حياتنا فما جفت ينابيع العطاء الكونى منذ أن صدر الأمر الإلهى للسماء والأرض بالتسخير حين قال الله للسماء والأرض (**ائتيا طوْعاً أوْ كَرْهاً قَالتَا أتيْنا طائعين فقَضاهُنّ سبْعَ سَمَوات في يوْمين وأوْحَى في كُلّ سماءٍ أمْرهَا ..**) . (فصلت : ١١ ، ١٢)

وكما ذُللت السماء والأرض للإنسان ، ذُلل له الحيوان والطير قال تعالى : (**والأنعام خَلقها لكم فيها دفْء ومنافع ومنها تأكلُونَ**) . (النحل : ٥)

فتأمل ـ أخا الإسلام ـ إلى هذا الإنسان السيد الذى سوّده الله على غيره من الكائنات المشاركة له في هذا الكون :

* تأمل مشهد الخلق الأول ، وآدم قد صنعه الله وخلقه بيديه ونفخ فيه من روحه

---

(١) إبراهيم : ٣٢ -٣٣ .

(٢) لقمان : ٢٠ .

(٣) لقمان ٢٩ .

(٤) الملك : ١٥ .

* تأمل نفس المشهد والملائكة مصطفون أمام ربهم يشهدون تفوق آدم حيث علمه الله الأسماء كلها .

* ثم تأمل ذلك التكريم فى المشهد ذاته وقد أمر الملائكة بالسجود لآدم .

* وحين تمرد إبليس وأبى السجود .. طرده رب العزة من رحمته .

* وتأمل هذا المشهد الجليل مشهد العهد الذى يصوره قول الله تبارك وتعالى **(وإذ أخذ ربُّكَ من بَني آدمَ من ظُهورهم ذريتَهم وأشهدَهُم على أنفُسِهِم ألسْتُ بربِّكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ..)** . (الأعراف : ١٧٢)

وفي جلال هذا التكريم وعظمته يتمكن إبليس اللعين من إغواء آدم ، فأكل آدم من الشجرة ونسى آدم العهد كما قال سبحانه **(ولقد عَهِدْنا إلى آدَمَ من قَبْلُ فَنسيَ ولَمْ نَجِدْ له عزْماً)** (طه : ١١٥) وقال جل شأنه **(وعَصَى آدمُ ربَّه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ..)** (طه : ١٢٢)

وتهبط منزلة آدم ـ قليلاً ـ حيث ينزل إلى الأرض ليطرق الأسباب فيها بعد أن كان غنياً عنها **(قلنا اهبطوا منها جميعاً)** وتأمل قوله تعالى فى سورة التين **(لقد خلقنا الإنسانَ في أحسن تقويم)** حيث كان التكريم الذى رأينا بعض جوانبه في ثنايا الآيات القرآنية ، وقد أشرنا إلى بعض هذه الجوانب آنفاً .

وحينما يهبط آدم من هذا الجو النورانى نجد آيات سورة التين تشير إلى حالة الإنسان بعد الهبوط .. **(ثم رددناه أسفل سافلين)** (التين : ٥)

إنه انتقل من نورانية الحياة العلوية إلى كثافة الحياة السفلى .. الحياة الدنيا ولم يُغلق الباب للعودة إلى النورانية العلوية **(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)** فالباب للعودة مفتوح أمامهم دون غيرهم فأصبحت رحلة العودة رحلة انتقائية ينجح فيها المؤمنون فقط ، وحين نزل آدم إلى الأرض ظل له جانب من جوانب السيادة ، فسخر الله له ما في السموات وما في الأرض ، وذلل له الكثير من المخلوقات كى يتفرغ للهدف الأسمى من وجوده على الأرض، قال تعالى **(وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون)** وهكذا نستطيع أن نضع الإنسان على قمة الكائنات حوله .. وذلك حسب الترتيب التصاعدى الاعتبارى للغاية من كل كائن :

* **فالجماد** * **ثم النبات** * **ثم الحيوان** * **ثم الإنسان .**

أما الجماد فمسخر للكائنات فوقه : فهو مسخر للنبات والحيوان والإنسان فالنبات يستخدم الجماد ويمتص منه غذاءه وكذا الحيوان والإنسان كل واحد حسب طبيعته ...

أما النبات فهو مسخر للحيوان والإنسان حسب طبيعة كل كائن .

وكذلك الحيوان : نراه مسخراً للإنسان .. كما صرح بذلك القرآن .

فإذا ما وصلنا للإنسان وجدناه غير مسخر لشئ فى هذه الحياة .. إلا للعبادة .

فإذا كان كل كائن مرتبطاً بما هو أكبر منه رتبة كان لابد للإنسان من غاية تشده ، وقيمة أكبر تستخدمه ، إذ لا يعقل أن يسمو كل كائن بارتباطه بما فوقه من كائنات ويُعطل الإنسان عن هذا السمو ويحل التدنى عنده محل التسامى ويصير أقل الكائنات بارتباطه بما هو أقل منه ..

وبهذا السمو يستمد الإنسان معنى وجوده وغايته ، وبدونه تتوه الغاية ويضيع المعنى ويؤكد القرآن هذا التسامى حين يرتفع بنظر المؤمن إلى السماء .. فإذا كانت الأرض تنبت له النبات وتخرج له من الكنوز ما لم يخطر له على بال ،وإذا كان يقيم على الأرض بناءه ومشروعاته فأقداره فى السماء كما قال تعالى :

(وفى السَماء رزقُكُم ومَا تُوعَدُونَ فَورَبِّ السماء والأرضِ إنَّه لَحَقٌ مثل ما أنَّكم تنطِقُونَ) (الذاريات : ٢٢ ، ٢٣) وهكذا يضع الإنسان البذرة في الأرض وهو متعلق بالسمو مشدود إلى الملأ الأعلى .

إن الإنسان مطالب بأسمى هدف فى هذه الدنيا ، وقد يسّر الله له الأسباب وسخرها له ، فهل يجوز أن يتحول السيد إلى عبد ؟ وهل يرضى أن يجعل الإنسان خادمه سيداً له مهيمناً عليه ... ؟؟

ان هذا هو الانتكاس والارتكاس ، والرضا بالدنية وهو موجب لأن يظل الإنسان فى أسفل سافلين والعياذ بالله ...

والإسلام يربط المؤمن بربه ويهوّن عليه من أمر دنياه كى يحقق غايته ..

والحمد لله رب العالمين .

* * *

خواطر عن الدنيا

الدنيا : لماذا غاب عن الناس وصفها ؟ وحُبِّبَ إليهم غرورها ؟

وامتدت إلى زينتها أبصارهم ؟ ما بالهم يدفنون موتاهم وينسون أنفسهم ؟ وكأنهم إلى غير ذلك صائرون ؟ أو عن اللحد بعيدون . ؟

لقد توقفت حياة الميت ، ولم تتوقف حياتهم وهم إلى نفس المصير يجدون المسير ، **فما بال الدنيا في نظرهم ؟**

إن الدنيا مشتقة من الدنو والدنو هبوط والهبوط مذلة وهوان أو هى من القرب لدنوها من الإنسان .. وسهولتها في نظره ، .. وكونها دانية من الإنسان فهى هابطة قريبة .. أو أن الأجل فيها قريب والعمر فيها قصير ، فالإنسان يعيش ستين سنة ـ مثلاً ـ أو أكثر من ذلك أو أقل .. فما قيمة ذلك ؟

أعود بك إلى آيات القرآن الكريم لنقرأ معاً عن ذلك اليوم الإلهيّ ومدى طوله فى أقل تقدير قال تعالى: (**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**) . (الحج : ٤٧)

نعم .. يومٌ إلهيٌّ كألف سنةٍ ، ممّا نعد .. هل رأيت كم تساوى ألف سنة ؟ إنها مجرد يوم ..

وبهذا المقياس .. ترى كم يساوى عمر من يعيش ستين عاماً ؟ إنه يعيش ما يوازى ستين من ألف .. وكذلك من يعيش سبعين عاماً .. وأكثر من ذلك فكلها أجزاء من ألف .. لا من مائة ..

هل عرفت مقدار عمرك في أدنى حساب إلهى ؟ وهل تريد أن تعرف أكثر ؟ إذن فإليك هذه الحسبة ..

نحن الآن في العام الثامن بعد المائة الرابعة من الألف الثانى الهجرى . (١٤٠٨هـ) وبحساب اليوم الألفى (ألف سنة مما تعدون) يكون قد مضى على هجرة محمد ﷺ أقل من يوم ونصف يوم حيث بقى ما مقداره اثنان وأربعون (٤٢) عاماً بحسابنا ليتم اليوم الثانى .

أى بعد (٤٢) عاماً يكون قد مرّ على الهجرة النبوية يوم ونصف يوم . أما ميلاد المسيح عليه السلام فقد أوشك أن يمر عليه يومان ألفيان ونحن الآن أوائل عام (١٩٨٨م) أى باق من الزمن اثنا عشر عاماً حتى يتم اليوم الثانى على ميلاد المسيح عليه السلام بالحساب الألفى .

يومان ألفيان عاش فيها عشرات الأجيال من البشر ، وقامت دول وانهارت دول ونهضت حضارات وبادت حضارات أخرى ..

وأقرب مثل لأجيال البشر خلال تلك الأيام الألفية هو أجيال الذباب فى السنة الهجرية أو الميلادية .

نعم .. وإليك هذا الحوار :

ـ كم عمر الذبابة تقريباً ؟

ـ عمر الذبابة شهر تقريباً ..

ـ كم جيلاً من أجيال الذباب نراه في عام واحد ؟

ـ حوالي عشرة أجيال تقريباً ...

ـ لو افترضنا أن هذه الأجيال من الأجيال البشرية فكم يستغرق عشرة أجيال تقريباً .

ـ عشرة أجيال بشرية تستغرق ألف عام تقريباً ..

ـ معنى ذلك أن عشرة أجيال بشرية تساوى يوماً إلهياً في عالم الأرض وعشرة أجيال من الذباب تساوى عاماً بشرياً ..

ـ لو سألنا ذبابة عن أجدادها ، ولو افترضنا أنها عقلت حياتها كما نعقل حياتنا فماذا تقول ؟

ـ الجواب أنها ستنظر فى تأمل عميق إلى ما مضى من الأجيال . فماذا يكون موقفنا تجاه هذا التأمل الطويل للذبابة ؟

ـ نحن البشر ـ سنبتسم ابتسامة أسى وشفقة حينما نرى الذبابة تنظر إلى عامنا هذه النظرة الموغلة في الغموض .

سنضرب كفاً بكف ونقول : أيتها الذبابة المسكينة إن جدك الأول الذى ولد وعاش فى عامنا هذا قد رأيناه .. ومن يعش منا عاماً آخر سيرى عشرات الأجيال من أحفادك .

ثم .. بماذا سترد علينا الذبابة ... ؟

إنها سترد : ـ لو عقلت أمرها كما عقلنا ـ في عجب ودهشة ، وربما لن تتصور حقيقة ما ذكرناه لها .. فإمكانياتها الفكرية ـ لو عقلت ـ لن تساعدها على فهم ما عقلناه وتعودناه ..

هذه بعض افتراضات .. وخيالات عساها تكون قد وضحت حقيقة حياتنا على الأرض ونسبتنا إلى الملأ الأعلى ..

عشرة أجيال بشرية تعادل أدنى الأيام الإلهية ألف عام ومع ذلك تعظم الحياة في عيوننا وهى غير عظيمة وإنما عظمتها بالإيمان ولنعرف حقيقة ما يجرى منا في هذه الحياة .. ننتقل إلى عالم النمل :

ـ هل شاهدت قطيع النمل ؟

هذه نملة تسرع خلف أخرى وثالثة ورابعة ـ وعاشرة ..ومائة .. حركة دائبة وقد بدأت تشق لها بيتاً في جدار .. أو في جوار شجرةً او في مكان ما من الأرض المنبسطة .. فى سرعة فائقة يندفع سرب النمل يحفر مسكنه أو يبنى بيته ويستخرج تلاً من التراب ، وتتزايد كومة التراب والنمل يزيد من إيقاعاته ، لا ندرى كم بلغ به الجهد حتى يرضى أخيراً عن بيته ، ويستقر فيه ويعمره .

يضع فيه بعض حبات القمح ، وبعض المطعومات الأخرى فياترى كم من حبات القمح تملأ خزينة البيت ؟

* ربما خمسون حبة من القمح .. أو ثلاثون حبة من الذرة أو ما إلى ذلك ...

* فهذه مئات الأفراد من النمل يضمها جحر واسع .. ضئيل .. واسع بالنسبة لها ضئيل بالنسبة لقبضة الطفل العابث إذا أراد أن يطوح ذرات الرماد ليغلق الباب على عش النمل .

* هذه هى قرية النمل .. حين تنظر إليها ..

* فهل ترى قرانا ومدننا تتجاوز هذا المظهر بالنسبة لعالمنا الذى نعيش فيه؟

* هل تظن العناية الإلهية أعطتنا مثال عش النمل وما يشبهه إلا ليعلمنا حقيقتنا ... ؟

* أتظن أن الإنسان حين يتطاول على الأرض ويتيه خيلاء ويملأه الغرور يتجاوز نملة في منظور العناية الإلهية ؟

كلا .. وأستغفر الله إن كنت تجاوزت في ضرب المثال للتقريب ، ولله المثل

الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ..

* على ضوء هذا المثال فهمت الكثير :

* فهمت معنى أن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة ...

* وفهمت لماذا هانت الدنيا في الحساب الإلهيّ حتى قال الله تعالى فى سورة الزخرف : **(ولولا أنْ يكونَ الناسُ أمةً واحدةً لجعلْنَا لمن يكْفُرُ بالرحْمَن لبيُوتهم سُقُفاً من فضةٍ ومعارجَ عليْها يظْهَرُونَ . ولبيُوتهم أبْوَاباً وسُرراً عليها يَتَّكئُونَ . وزُخْرفاً ، وإن كلُّ ذلك لَمَّا متاعُ الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين)** .

(الزخرف : ٣٣ ـ ٣٥)

* فهمت لماذا نعى القرآن على الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وعلى الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آيات الله غافلون ..

* ثم فهمت كيف أن الدنيا بغير إيمان لا تساوى شيئاً ..

* فلقد تقلصت الدنيا وانكمشت أمام عينى بترفها ومتاعها ، وصارت كسرة خبز وشربة ماء ، وثوباً ليستر العورة ، ويكفى المؤمن منها كزاد الراكب وصدق رسول الله ﷺ : **« من بات آمناً في سربه معافىً فى بدنه يملك قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها »** التكييف والسيارة .. والطائرة والملابس الزاهية ذات الفراء الثمين والخواتم الذهبية والفرش الوثيرة ، والبسط العظيمة والمكاتب الفخمة .. كلها ... لا شئ ..

إنها جميعاً يجمعها جحر النمل الغائر في الأرض .

(وما الحياةُ الدنيا إلاَّ متاعُ الغُرورِ) (آل عمران : ١٨٥)

* * *

من كلام الإمام على رضى الله عنه
فى الدنيا

آثرنا أن نذكر في هذا الباب بعض ما نسب إلى الإمام علي رضى الله عنه وكرم الله وجهه من أقوال عن الدنيا وحقيقتها ، والسر فى ذلك أن مريدى الإمام ومحبيه قد رووا عنه كتاباً مشهوراً أطلقوا عليه " نهج البلاغة " وفيه الكثير والكثير من الأقوال في شتى المجالات ، ولقد هممت أن أتناول هذا الكتاب بالدراسة والتحليل ، ففيه من الأقوال ما يناقض شخصية الإمام ، لأنها تنم عن الضعف والعجز أحياناً .. بل وفيها بعض التجاوزات التى لا تليق .. ولكن الظروف لم تساعد على إنجاز مثل هذا العمل ، وأرجو أن ييسر الله الأمور .. وكان إخراج كتاب عن الدنيا وأحوالها مناسبة لعرض بعض آراء الإمام علي رضى الله عنه وموقفه من الدنيا ...

ففى هذه الآراء ما يستحق التأمل فيه والاستفادة منه ، ومنها ما يستحق أن يمر عليه القارئ مروراً عادياً ... بل ربما يتوقف الإنسان أمام بعض هذه الآراء ليؤكد أنها لا تصدر عن إمام من الخلفاء الأربعة الراشدين وسوف ندع للقارئ حرية الحكم على هذه الأقوال مكتفين ببعض التعليقات والإشارات :

(الجوانب المشرقة في الدنيا)

إن الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها ، مسجد أحباء الله ، ومصلى ملائكة الله ، ومهبط وحي الله ، ومتجر أولياء الله ، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببيْنها ، ونادت بفراقها ؟

ونعت نفسها وأهلها [١] ؟ فمثلت لهم ببلائها البلاء [٢] وشوقتهم بسرورها إلى السرور [٣] راحت بعافية وابتكرت بفجيعة ترغيباً وترهيباً ، وتخويفاً وتحذيراً ،

---

(١) قاربت نهايتها

(٢) أى ضرب فيها أمثلة البلاء كى يستعدوا للآخرة ففيها من البلاء أشد مما فى الدنيا ..

(٣) أى إلى نعيم الجنة .

فذمها رجال غداة الندامة [1] وحمدها آخرون يوم القيامة ذكرتهم الدنيا فتذكروا وحدثتهم فصدقوا ووعظتهم فاتعظوا [2] .

(التعلق بالدنيا)

* من أصبح على الدنيا حزيناً فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً .

* من لهج قلبه بحب الدنيا التاط [3] قلبه منها بثلاث : هم لا يُغبّه [4] وحرص لا يتركه [5] وأمل لا يدركه [6] .

(الحياة الفانية)

أيها الناس : إنما أنتم في هذه الدنيا عَرَضٌ تنتضل فيه المنايا ، مع كل جرعة شرق ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى ولا يعمَّر معمَّر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ولا تجدُّد له زيادة في أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزقه ولا يُحيا له أثر إلا مات له أثر ولا يتجدد له جديد إلا بعد أن يَخْلَقَ له جديد . ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محصودة ، وقد مضت أصول نحن فروعها فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله ؟

(من دروس الحياة)

ألا وإن هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنونها ، وترغبون فيها ، وأصبحت تغضبكم وترضيكم ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له ، ولا الذي دُعيتم إليه ، ألا وإنها ليست بباقية لكم ولا تبقوْن عليها ، وهي - وإن غرتكم منها - فقد حذرتكم شرها فدعوا غرورها لتحذيرها وأطماعها لتخويفها وسابقوا إلى

---

(١) أي حينما لم يتعظوا بها فضاع ما في أيديهم فندموا عليه وذموها بعد ذلك ..

(٢) نهج البلاغة جـ٤ صـ٣٤

(٣) التصق .

(٤) حزن لا يتركه .

(٥) حرص دائم على الدنيا .

(٦) فالدنيا كالماء الملح كلما ازداد منه شرباً ازداد عطشاً (السابق صـ ٥٠ / ٦١) .

الدار التي دعيتم إليها .

ألا وإنه لا يضركم تضييع شئ من دنياكم بعد حفظكم قائمة دينكم (١) ألا وإنه لا ينفعكم بعد تضييع دينكم شئ حافظتم عليه من أمر دنياكم "

(منزلة الدنيا وحقيقتها)

وأحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة ، وليست بدار نجعة (٢) وقد تزينت بغرورها ، وغرت بزينتها دار هانت على ربها فخلط حلالها بحرامها وخيرها بشرّها وحياتها بموتها وحلوها بمرها ، لم يُصفْها الله تعالى لأوليائه ولم يضنّ بها على أعدائه ، خيرها زهيد وشرها عنيد وجمعها ينفد وملكها يُسْلب وعامرها يخرب فما خير دار تُنْقض نقض البناء ، وعمر يفْنى فناء الزاد ومدة تنقطع انقطاع السير؟

وما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه ؟ ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تُحْرمونه ؟ (٣) ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبيّن ذلك في وجوهكم وقلة صبركم عما زوى منها عنكم (٤) كأنها دار مقامكم وكأن متاعها باق عليكم .

(أحوال الدنيا وغدرها)

أما بعد : فإنى أُحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة حُفّت بالشهوات وتحببت بالعاجلة ، وراقت بالقليل وتحلت بالآمال وتزينت بالغرور لا تدوم حبْرتها ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة . حائلة زائلة ، نافذة بائدة أكالة غوالة ، لا تعدو- إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها (٥) - أن تكون كما قال

---

(١) قائمة الدين : أساسه . (٢) قلعة : عدم استقرار ، نجعة : استقرار .

(٣) فالغرور بالدنيا لأنها قريبة المنال ظاهرة الثمار خيرها عاجل والنفس مولعة بحب العاجل ،أما الآخرة فهى غيب والإنسان المؤمن يؤمل الثواب ولكن الدنيا أقرب .

(٤) أى فاتكم وحجب عنكم .

(٥) يعنى إذا بلغت أقصى مراد أهلها وحققت غاية الهدف لهم منها

الله تعالى (كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً) (الكهف : ٤٥) لم يكن امرؤ منها في حَبْرةٍ إلا أعقبته بعدها عَبْرةً ، ولم يلق في سرائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً ، ولم تطلّه (١) فيها ديمة رخاء إلا هتنت (٢) عليه مزنة بلاء . وحريٌّ (٣) إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة ، وإنْ جانبٌ منها اعذوذب واحلولى (٤) أمر منها جانبٌ فأوبى (٥) لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً إلا أرهقته من نوائبها تعباً ولا يمسي منها في جناح من أمن إلا أصبح على قوادم خوف .غرارة غرورٌ ما فيها ، فانية فانٍ من عليها ، لا خير في شئ من أزوادها إلا التقوى .

كم من واثق بها فجعته وذى طمأنينة إليها قد صرعته وذى أبهة قد جعلته حقيراً ، وذى نخوة قد ردته ذليلاً ، سلطانها دوِلٌ وغذاؤها سمام ، وأسبابها رمام حيُّها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سُقم ، ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب ، وموفورها منكوب وجارها محروب "

(خطر الاكتناز من الدنيا)

ألا وإن الدنيا دار لا يُسلَمُ منها إلا فيها ، ولا يُنجى بشئ كان لها (٦) .

ابتلى الناس بها فتنة فما أخذوه منها لها (٧) أخرجوا منه وحوسبوا عليه وما أخذوه منها لغيرها (٨) قدموا عليه (٩) وأقاموا فيه "

(١) أى تصيبه بالقليل من المطر، والديمة : السحابة .

(٢) اشتد مطرها والمزنة السحابة .

(٣) خليق وجدير .

(٤) أى صار عذباً وحلواً .

(٥) أوبى من الوباء .

(٦) أي لا نجاة بعمل صاحبه من أجل الدنيا

(٧) إذا كان سعيهم في الدنيا من أجل الدنيا .

(٨) أى للآخرة .

(٩) يعنى وجدوا الجزاء كما قال تعالى " كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ".

(الدنيا وغدرها)

مـا أصف من دار أولهـا عنـاء ، وآخـرها فنـاء ، في حـلالهـا حسـاب ، وفي حرامها عـقاب ، من استغنى فيهـا فُتن ، ومن افتقر فيهـا حزن ومن ساعـاها (١) فاتته ، ومن قعـد عنها واتته ، ومن أبصر بها بصَّرته ومن أبْصر إليها أعـمته (٢)

(الحكمة في رفض الدنيا)

" عبـاد الله أوصيكم بالرفض لهـذه الدنيا التاركـة لكم وإن لم تحبوا تركـها والمبلية لأجسـامكم وإن كنتم تحبـون تجديدها ، فإنما مثلكم ومثلهـا كسَفْرٍ سلكوا سبيلاً فكأنهم قد قطعوه وأمُّوا علماً (٣) فكأنهم قد بلغوه ، وكم عسى المجرى إلى الغـاية أن يجرى إليهـا حتى يبلغها ، ومـا عسى أن يكون بقـاء من له يومٌ لا يعدوه ، وطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتى يفارقها فلا تتنافسوا في عز الدنيا وفـخرها ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ولا تجزعوا من ضرائهـا وبؤسها فإن عزها وفخرها إلى انقطاع ، وإن زينتها ونعيمها إلى زوال . وضراؤها وبؤسها إلى نفاد ، وكل مدة فيها إلى انتهاء وكل حى فيها إلى فناء "

* * *

---

(١) سابقها وسعى من أجلها .

(٢) ببريقها وخداعها .

(٣) قصدوا جبلاً .

حقيقة الدنيا

{١} عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **« ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم »**(١)

بدأنا هذا الباب بهذا الحديث لينتبه القارئ إلى حقيقة الدنيا فهذه حقيقة الدنيا ومكانتها عند الله تبارك وتعالى :

ملعونة ، ملعون ما فيها .. فكيف الخروج من الدائرة ؟

يوضح الحديث طريق الخروج والخلاص ويتمثل فيما يأتى :

* ذكر الله .. كما قال تعالى « فاذكرونى أذكركم » وبالذكر يقيم المرء علاقة مع ربه تضمن له النجاة ، وبالذكر يرتفع المؤمن على ماديات الحياة .. ويرتبط بالملأ الأعلى فتصفو نفسه ويرق فؤاده ، وينتصر على كثافة الحياة والماديات .

* وما والاه .. من عبادة ، وأعمال صالحة وبر بالناس وصلة للأرحام وغير ذلك مما رضيه الله لعباده فشرعه لهم وحثهم عليه .

* عالم .. يعرف أمور الدين ومقتضياته ثم الحلال والحرام ، فيكون منارة يهتدي بها الحائرون ، وقدوة تأسّى بها العاملون فيذكرهم إذا نسوا ويعظهم إذا تكاسلوا وتقاعسوا ، ويثبت من اليقين إذا أخذت المصائب بالألباب وربما لحق بهذا العالم زميل له في علوم الطبيعة والكيمياء وغيرها من العلوم الإنسانية والتجريبية حسبما تقوده نيته فإن كانت همته إلى الله تعالى لحق بجانب الخير ، وإلا فأمره الى الله تعالى .

*** ثم متعلم ينشد الحقيقة ويتحسسها في ظلام الجهالة وكثافة المادة لا يبتغيها رياء ولا سمعة ولا ينشد مكانة ووجاهة بين الناس .**

{٢} عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل

---

(١) رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب واللعن :الطرد من رحمة الله تعالى والحديث يوضح أبواب هذه الرحمة .

عند الله جَناحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماءٍ » [١]

نرى الكافر منعماً في الدنيا ، يعب منها وينال من خيراتها ، وهو جاحد مشرك ومع ذلك فلا يمنع الله عنه رفداً ولا يحرمه .. بل يمد له . كما قال تعالى **(كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ومَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً)** (الإسراء : ٢٠) ولكن العطاء الإلهي للكافر ليس منحة على الكفر أو مكافأة للكافر ولكنه استدراج كما قال سبحانه: **(قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً)** (مريم : ٧٥) وكما قال : **(إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً)** (آل عمران : ١٧٨) فليأخذ الكافر من الدنيا ما قدر عليه وما قدر له ، فإنه يقبض على الهواء ويكنز الرماد ، ولو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما ترك الكافر ينعم فيها بكفره .. ولكن ياطول عذابه يوم القيامة .... فقد أقيمت عليه الحجة في الدنيا .

{٣} عن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن مطعم ابن آدم جُعل مثلاً للدنيا وإن قزّحه وملحه** [٢] **فانظر إلى ما يصير** » [٣]

حال الدنيا مثل طعام الآدمي ، يبدو أول الأمر شهياً يغرى وتنفتح له شهية الأكل وخصوصاً إذا حلته التوابل والفلفل والكمّون ،، ولكنه بمجرد ابتلاعه يصير خلقاً آخر فيأخذ الجسم منه ما يحتاجه ثم يصير الباقى فضلات إلى الخلاء وفى ذلك توضيح وتحذير من الاغترار بزينة الحياة الدنيا وزهرتها .

{٤} عن سلمان قال : **جاء قوم إلى رسول الله ﷺ فقال لهم : ألكم طعام ؟ قالوا : نعم قال : فلكم شراب ؟ قالوا : نعم . قال فتصفونه ؟ قالوا : نعم . قال وتبرزونه ؟ قالوا : نعم . قال : فإن معادهما كمعاد الدنيا يقوم أحدكم إلى خلف بيته فيمسك على أنفه من نتنه »** [٤] .

ألا ما أهون الدنيا ، وما أحقرها وهى تصير إلى العفن والنتن ، وما أهون المتعلق بها وما أحقره .

---

(١) قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه

(٢) قزحه أى مهما وضع فيه التوابل وملحه أى وضع فيه الملح والتوابل تجعل الطعام شهياً ولكنه في النهاية يصير إلى ما يصير إليه من براز ونتن لا يستطيع الإنسان أن ينظر إليه بل يتأفف منه ويتأذى

(٣) قال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير عتيّ وهو ثقة .

(٤) قال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

ثم تأمل هــذا الوصف التفصيلي التقريري .. أسئلة متتابعة .... ألكم طعام ..؟ شراب ...؟ تصفونه ؟ تبرزونه .. وأخيراً .. يمسك المرء على أنفه من نتنه ... فهذه حال الدنيا .

{٥} عن المستورد بن شداد قال : **كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة (الشاة) الميتة فقال رسول الله ﷺ : أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها ؟ قالوا : من هوانها ألقوها يا رسول الله . قال : فالدنيا أهون على الله من هــذه على أهلها »**[1] .

لازلنا بين يدى التوضيحات النبوية لبيان حقيقة الدنيا .

وهذا مشهد تعليمي حيث يقف الرسول ﷺ بأصحابه على شاة ميتة ويسألهم : أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها ...؟ فأجابوا : نعم هانت على أهلها فلم يتعلق بها أحد ولم يجد فى نفسه رغبة فيها فألقوها غير عابئين بها أو آسفين عليها .

وتأتى إجابة القوم للنبى ﷺ قالوا : من هوانها ألقوها .. ويلقى معلم البشرية ﷺ الحكمة مبيناً لهم أن الدنيا أهون على الله من هذه الشاة الميتة على أهلها ليتعلم من أراد وليتذكر أولو الألباب .

{٦} عن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لو كان لابن آدم وادى نخل تمنى مثله ثم تمنى مثله حتى يتمنى أودية ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**»[2]

الحديث يوجه الأنظار إلى طبيعة في الآدمى لا يملك لها دفعاً وهى حب المال من نخيل وغيره ، وينتهى الحديث إلى التبصرة حتى لا ينساق المؤمن خلف هذه الفطرة فتلهيه عن الآخرة ، .. حيث لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب .. وفيه إشارة إلى أن كل ما يتمناه الإنسان مآله إلى التراب أو أنه يعادل التراب فلا قيمة له والآخرة خير وأبقى .

{٧} عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « **الدنيا سجن المؤمن**

---

(١) قال الترمذى : حديث حسن .

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أبى يعلى والبزار رجال الصحيح.

وجنة الكافر»[1] .

إن المؤمن يعانى الكثير في هذه الدنيا ، فهو بين شهوة عارضة يدافعها ورغبة عارمة يعارضها ، وبين حلال يسعى إليه وحرام يخشاه .

فى نفسه حاجات ، ولله طاعات ، ويجب أن تتقدم الطاعات على الحاجات ، ولذا فهو يصوم إذعاناً لأمر الله ، ولا يعبأ بإحساسه بالجوع ، وذلك لكي يُظهر لله من نفسه استجابة وطاعة .

وهو يتصدق ، ويزكى رغم حبه للمال ، ولكن حبه لله تعالى أشد وأعظم ..
فالدنيا سجن المؤمن : لا ينطلق إلى شهوة إلا بقيد الإيمان ولا يتطلع إلى رفاهية ، إلا ونصب عينيه الخوف من الله والرغبة في رضاه .. فإذا .. جاء موعده في الآخرة وجد المزيد عند ربه . أما الكافر .. فلا تقيده طاعة ولا يحده أمر إلهى فهو طليق من كل قيد .

(٨) عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « **الدنيا سجن المؤمن وسنته ، فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة »**[2] وزالت عنه محنته فهو ينتظر الكثير والكثير فى الآخرة .[3]

(٩) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر رضى الله عنه وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال : يا نبي الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا فقال : ما لى وللدنيا ، وما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها »[4]

إن الحياة رحلة ليست الدنيا فيها سوى مرحلة قصيرة ، فهى معبر يستظل فيه المسافر ، ويستريح ساعة من نهار ، تلك حقيقة الحياة للمؤمن ، ولهذا نجد النبى ﷺ يقول : مالى وللدنيا ؟ فلا هى دار مستقر ولا هى دار أمان[5]

---

(١) قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) رواه أحمد والطبرانى باختصار ورجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الله بن جنادة وهو ثقة .

(٣) «السنة» الابتلاء ...

(٤) أوثر اسم تفضيل والفراش الوثير : اللين / صائف : شديد الحر .

(٥) مراحل الحياة ثلاثة : **الأولى** : ما قبل الولادة وهى غيب لا يُسأل عنه الإنسان **والثانية** : بعد الولادة وهى مزرعة الإنسان **والثالثة** : بعد الموت وفيها يجنى الإنسان ثمرة عمله .

{١٠} (إنّما الحيـــاةُ الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ ، وإن تؤمنوا وتتَّقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويُخرج أضغانكم ، ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) (١)

قد يعجب القارئ كيف نؤجل الحديث عن موقف القرآن من الدنيا وإظهاره حقيقتها إلى الآن؟ ولماذا لم نبدأ بآيات القرآن ؟ والجواب : أن الأحاديث التى أوردناها وعلّقنا عليها قد قدمت التمهيد بعدة حقائق يسهل بها فهم آيات الكتاب المبين .

ولقد مر بنا كيف أن الحياة الدنيا لعب ، فهى إلى زوال وهى عديمة القيمة إذا خلت من الإيمان ثم هى لهو يتلهى بها الكافر عن آخرته .. ومظاهر الحياة بهيجة تتعلق بها النفوس فتحرص عليها فإذا اطمأن إليها الإنسان وتلهى بها صارت لعباً .. فهى ألعوبته وهى ملهاة ولا تتحول عن ذلك إلا بقضية الإيمان .

أرأيت إلى الشخص البعيد عن الإيمان :

* كيف يطمع في الدنيا . وكيف يحرص عليها ..؟ وكيف يفتخر بما أنجزه؟ وكيف يحزن على ما فاته ؟ وكيف يثق بها ..؟ وكيف يستند إليها . ؟

كل ذلك .. هو اللعب .. واللهو .. والآية التى بين أيدينا توضح لنا كيف يتحول اللعب إلى جد ، وكيف يتحول اللهو إلى غاية وهدف ؟

إن وسيلة ذلك الإيمان والتقوى ... فبالإيمان ينال الإنسان أجره وبه أيضاً يستسيغ الإنسان الإنفاق فى سبيل الله لا في سبيل الشيطان .. وبالإيمان تعتدل موازين الحياة .. وبالإيمان يتجنب المؤمن البخل لأنه لا يبخل عن أحد إلا عن نفسه إن كان من البخلاء .

فالله يعطى ويمنع .. وهو سبحانه قادر على أن يُفْقر ويغنى ، فالمؤمن حين يعطى إنما يعطى نفسه أولاً إذ يقربها من رضوان الله ..

والمؤمن حين يعطى إنما يفتح لنفسه باب الخير ..

أما من يبخل فإنه لا يبخل عن فقير لأنه يبخل عن نفسه أولاً ، إذ لم يعمل

---

(٣) محمد : ٣٦ - ٣٨ .

على أن يفتح لها أبواب الرحمة .

فما ثمن الإيمان إذن ... ؟ هل يعنى الإيمان والتقوى أن يتنازل الإنسان عن ماله ويترك ثروته ؟

كلا .. فالله تعالى « يؤتكم أجوركم .. » « ولا يسألكم أموالكم » إن الآية تفك أغلال الحياة عن عنق الإنسان المؤمن وتحرره من سجن الدنيا ، وتفتح له باب الحرية واسعاً عند الله تعالى ..

ثم تشير الآية إلى جزاء من يتولى . ويَمْتنع عن الإنفاق في سبيل الله وكسر حواجز الدنيا وأغلالها (وإنْ تَتَولَّوا يَسْتَبْدِلْ قوماً غَيْرَكُمْ) (محمد : ٣٨) فسيأتى من يقوم بالمهمة والله على كل شيء قدير .

{١١} (إنَّما مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أنْزلناهُ من السَّمَاءِ فاخْتَلطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ ممَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأنْعامُ حتَّى إذَا أَخَذتِ الأرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أهْلُها أنَّهُم قَادِرونَ عَلَيها أتَاهَا أمْرُنَا لَيْلاً أوْ نَهاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كأن لمْ تَغْنَ بالأمْسِ كَذلكَ نُفصِّلُ الآياتِ لِقومٍ يَتَفَكَّرون) [(١)] .

ضرب الله مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء (واختلط) بما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الأنعام من أب (أى تبن وما شابهه) وقضب (أى لين ورطب) وغير ذلك : (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) أى زينتها الفانية (وازّينت) أى حسنت بما خرج فى رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (وظن أهلها) الذين زرعوها وغرسوها (أنهم قادرون عليها) أى على جذاذها وحصادها فبينما هم كذلك إذْ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ولهذا قال تعالى :(أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً) أى يابساً بعد الخضرة والنضارة (كأن لم تغن بالأمس) أى كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك ، قال قتادة : كأن لم تغن : أى كأن لم تنعم (لقوم يتفكرون) فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها ، وتفلّتها

---

(١) يونس : ٢٤ .

عنهم فإن من طبعها الهرب ممن طلبها والطلب لمن هرب منها (١)

ذلك مثل الحياة الدنيا التى لا يَمْلك الناس إلا متاعها حين يرضون بها ويقفون عندها ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى ..

هـذا هو الماء ينزل من السماء وهذا هو النبات يمتصّه ويختلط به فيمرع ويزدهر ؟ وها هى ذى الأرض كأنها عروس مجلوة تتزين لعرس وتتبرج وأهلها مزهوون بها يظنون أنها بجهدهم ازدهرت وبإرادتهم تزينت وأنهم أصحاب الأمر فيها ، لا يغيرها عليهم مغير ولا ينازعهم فيها منازع وفي وسط هذا الخصب المرع ، وفي نشوة هذا الفرح الملعلع وفى غمرة هذا الاطمئنان الواثق (أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس)

فى ومضة وفى جملة وفى خطفة .. وذلك مقصود فى التعبير بعد الإطالة فى عرض مشهد الخصب والزينة والاطمئنان .

وهذه هى الدنيا التى يستغرق فيها بعض الناس ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع .. هذه هى ...

لا أمن فيها ولا اطمئنان ، ولا ثبات فيها ولا استقرار ، ولا يملك الناس من أمرها شيئاً إلا بمقدار (٢) ويضرب القرآن مثلاً للحياة الدنيا كلها فإذا هى كتلك الجنة المضروبة مثلاً قصيرة .. قصيرة لا بقاء لها ولا قرار (واضْرِبْ لهُم مَثلَ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلْناهُ منَ السَّماءِ فاختلطَ بهِ نباتُ الأرضِ فأصبحَ هشيماً تَذْروهُ الرِّياحُ ، وكانَ اللهُ على كلِّ شيءٍ مُقْتدراً) (الكهف : ٤٥)

هذا المشهد يُعرض قصيراً خاطفاً ليلقى فى النفس ظل الفناء والزوال فالماء ينزل من السماء فلا يجرى ولا يسيل ، ولكن يختلط به نبات الأرض والنبات لا ينمو ولا ينضج ، ولكنه يصبح هشيماً تذروه الرياح ..

وما بين ثلاث جمل قصار ينتهي شريط الحياة .

وبعد أن يلقى مشهد الحياة الذاهبة ظله فى النفس يقرر السياق بميزان العقيدة قيم الحياة التى يتعبدها الناس فى الأرض ، والقيم الباقية التي تستحق الاهتمام: (المالُ والبَنُون زينةُ الحياةِ الدُّنيا ، والبَاقياتُ الصالِحاتُ خيرٌ عندَ ربِّكَ ثواباً وخَيرٌ أمَلاً) (الكهف : ٤٦)

والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة فى حدود الطيبات ، ولكنه يعطيهما

---

(١) ابن كثير جـ ٢ صـ ٤٤٢/ ٤٤٣ . (٢) ظلال القرآن جـ ٣ صـ ١٧٧٥ .

القيمة التى تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد .

إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة ، فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما في الحياة ، إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات .

وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين فإن الباقيات الصالحات خيرٌ ثواباً وخيرٌ أملاً . عندما تتعلق بها القلوب ، ويناط بها الرجاء ويرتقب المؤمنون نتاجها ، وثمارها يوم الجزاء .

(١٢) (اعْلَمُوا أَنَّمَا الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بَينكُم وتكاثرٌ في الأَمْوال والأَوْلاد كَمَثَلِ غيثٍ أعجبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصفراً ثم يكونُ حُطَاماً وفي الآخِرةِ عَذابٌ شَدِيدٌ ومَغفِرةٌ منَ اللهِ ورِضْوانٌ ومَا الحياةُ الدُّنْيا إلا متاعُ الغُرور) (الحديد : ٢٣٠)

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها (إنما الحياة الدنيا لعب .... الآية) أى إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا .. ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال (كمثل غيث) وهو المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس ، وقوله تعالى (أعجب الكفار نباته) أى يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار فإنهم أحرص شئ عليها وأميل الناس إليها (ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما) أى يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعدما كان خضراً نضراً ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً.. أى يصير يبساً متحطماً ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ثم تكتهل ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان يكون كذلك فى أول عمره وعنفوان شبابه غضناً طرياً لين الأعطاف بهىّ المنظر ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى قليل الحركة يعجزه الشئ اليسير كما قال تعالى (**اللهُ الذى خلقكُم من ضعفٍ ثم جعل من بعد ضَعفٍ قوةً ثم جعلَ من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبةً ..**) (الروم : ٥٤)

ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال (**وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان .. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ..**) (الحديد : ٢٠)

فالدنيا متاع فانٍ غدّارٌ لمن ركن إليه فإنه يغتر بهاوتعجبه حتى يعتقد أنه لا

دار سواها ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة [1]

قوله تعالى " إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ..." **قال ابن عطية :** المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية ما يختص بدار الدنيا من تصرف ، وأما ما كان فيها من الطاعة وما لابد منه مما يقيم الأود ويعين على الطاعة فليس مراداً هنا والزينة مايتزين به مما هو خارج عن ذات الشئ مما يحسن به الشئ والتفاخر يقع بالنسبة غالباً كعادة العرب والتكاثر ذكر متعلقه فى الآية وصورة هذا المثال أن المرء يولد فينشأ فيقوى فيكسب المال والولد ويرأس ، ثم يأخذ بعد ذلك في الانحطاط فيشيب ويضعف ويسقم وتصيبه النوائب من مرض ونقص مال وعز ثم يموت فيضمحل أمره ويصير ما له لغيره ، وتغير رسومه فحاله كحال أرض أصابها مطر فنبت عليها العشب نباتاً معجباً أنيقاً ثم هاج أى يبس واصفر ثم تحطم وتفرق إلى أن اضمحل .

قال الغزالي : « اعلم أن مثل أهل الدنيا فى غفلتهم كمثل قوم ركبوا سفينة فانتهوا إلى جزيرة معشبة فخرجوا لقضاء الحاجة فحذرهم الملاح من التأخر فيها وأمرهم أن يقيموا بقدر حاجتهم وحذرهم أن يقلع بالسفينة ويتركهم فبادر بعضهم فرجع سريعاً فصادف أحسن الأمكنة وأوسعها فاستقر فيها ، وانقسم الباقون فرقاً : الأولى : استغرقت فى النظر إلى أزهارها المونقة وأنهارها المطردة وثمارها الطيبة وجواهرها ومعادنها ثم استيقظ فبادر إلى السفينة فلقى مكانا دون الأول فنجا فى الجملة .

الثانية : كالأولى لكنها أكبت على تلك الجواهر والثمار والأزهار ولم تسمح نفسه برمى ما استصحبه فصار مثقلاً به ثم لم يلبث أن ذبلت الأزهار ويبست الثمار وهاجت الرياح فلم يجد بداً من إلقاء ما استصحبه حتى نجا بحشاشة نفسه

الثالثة : توجلت فى الغياض وغفلت عن وصية الملاح ثم سمعوا نداء بالرحيل فمرت فوجدت السفينة سارت فبقيت بما استصحبت في البر حتى هلكت

الرابعة : اشتدت بها الغفلة عن سماع النداء وسارت السفينة فتقسموا فرقاً منهم من افترسته السباع ومنهم من تاه على وجهه حتى هلك ومنهم من مات جوعاً ومنهم من نهشته الحيات .

قال : فهذا مثل أهل الدنيا فى اشتغالهم بحظوظهم العاجلة وغفلتهم عن

---

(١) ابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٤

عاقبة أمرهم ثم ختم بأن قال : وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن يغترّ بالأحجار من الذهب والفضة والهشيم من الأزهار والثمار وهو لا يصحبه شئ من ذلك بعد الموت . والله المستعان .

(١٣) (**إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وإنَّا لجاعلونَ ما عَلَيْها صعيداً جرزاً**) (١).

أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة وإنما جعلها دار ابتلاء لا دار قرار " قال ﷺ **إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لناظر ماذا تعملون ؟ فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء »** (٢).

وفي سياق الحديث عن حقائق الحياة نقرأ في سياق سورة الكهف قصة الرجلين المتحاورين في شأن الثروة والجاه قال تعالى : (**واضْرِبْ لهُم مثلاً رجُلين جَعَلْنَا لأحدهما جنَّتين منْ أعناب وحففْناهُمَا بنخْلٍ وجَعلنا بَيْنَهُمَا زَرْعاً كلتا الجنَّتيْن آتت أُكُلَها ولم تَظْلمْ مِنْهُ شيئاً وفجَّرْنا خِلاَلَهُمَا نَهَراً ..**) (٣)

تجئ قصة الرَّجلين والجنتين تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة والنفس المعتزّة بالله ، وكلاهما نموذج إنسانى لطائفة من الناس :

صاحب الجنتين : نموذج للرجل الثرى تذهله الثروة ، وتبطره النعمة فينسى القوة الكبرى التى تسيطر على أقدار الناس والحياة ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى فلن تخذله القوة ولا الجاه .

وصاحبه : نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلاً على المنعم موجبة لحمده وذكره لا لجحوده وكفره .

وتبدأ القصة بمشهد الجنتين في ازدهار وفخامة « واضرب لهم مثلاً ... الخ » إلى قوله تعالى « وكان له ثمر » فهما جنتان مثمرتان من الكروم محفوفتان بسياج من النخيل تتوسطهما الزروع ويتفجر بينهما نهر .. إنه المنظر

---

(١) الكهف : ٧ -٨ .

(٢) ابن كثير جـ ٣ صـ٧٧ وقوله : صعيداً جرزاً قيل : بلقعاً لا ينبت ولا ينتفع به .

(٣) راجع الآيات ٣٢ -٤٦ من سورة الكهف .

البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال ، وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما ويزدهيه النظر إليهما فيحسّ بالزهو وينتفش كالديك ، ويختال كالطاووس ويتعالى على صاحبه الفقير « أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين ، وملء نفسه البطر ، وملء جنبه الغرور وقد نسى الله ونسى أن يشكره على ما أعطاه ، وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبداً ، بل أنكر قيام الساعة أصلاً ، وهبْها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار !!! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا ؟ فلابد أن يكون جنابه ملحوظاً في الآخرة .. (**ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً**) إنه الغرور يخيل لذوى الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التى يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى فى الملأ الأعلى **فأما صاحبه الفقير** فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى ، معتز بعقيدته وإيمانه معتز بالله الذى تعنو له الجباه : **«قال له صاحبه - وهو يحاوره - أكفرت بالذى خلقك من تراب** .. الآيات إلى قوله تعالى : **« فلن تستطيع له طلباً »** **وهكذا** : تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة ، فلا تبالى المال والنفر ولا تدارى الغنى والبطر ، ولا تتلعثم فى الحق ، ولا تجامل فيه الأصحاب . **وفجأة ينقلنا السياق** : من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن .. **«وأحيط بثمره »** .. إلى قوله تعالى (**ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً**) وهو مشهد شاخص كامل :

الثمر كله مدمر .. والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب .. ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً ، وجلال الله يظلل الموقف حيث تتوارى قدرة الإنسان (١)

{١٤} **(زُيِّن للنَّاس حبُّ الشهوات من النساء والبنينَ والقناطيرِ المقنطرة من الذَّهب والفضَّة والخيلِ المسوَّمة والأنعامِ والحرثِ ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا واللهُ عندَه حسنُ المآب)** (٢)

يخبر تعالى عما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء

(١) ظلال القرآن جـ ٤ صـ ٢٢٧٠ .

(٢) آل عمران : ١٤ .

والبنين ، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد كما ثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال : « **ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء** » فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه ، وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء وقوله ﷺ « **الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة: إن نظر إليها سرّته ، وإن أمرها أطاعته وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله** » **وقوله في الحديث الآخر « حبّب إليّ النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » وقالت عائشة رضى الله عنها « لم يكن شئ أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلا الخيل » وفي رواية « من الخيل إلا النساء »**

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ ، ممن يعبد الله وحده لا شريك له فهذا محمود ممدوح بل ومحسود عليه كما ثبت في الحديث « **تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة** » وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء ، والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعاً ..

وحب الخيل على ثلاثة أقسام : تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون . وتارة تربط بطراً ونواء (عداء) لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر .. وتارة للتعفف واقتناء نسلها ، ولم ينس حق الله فى رقابها فهذه لصاحبها ستر .

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **ليس من فرس عربى إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول : اللهم إنك خولتنى من خولتنى من بنى آدم فاجعلنى من أحب ماله وأهله إليه وأحب أهله وماله إليه** » .

وقوله تعالى : « والأنعام » يعنى الإبل والبقر والغنم « والحرث » يعنى الأرض المتخذة للغراس والزراعة .

قال ابن جرير عن أبى بكر بن حفص بن عمر بن سعد قال : قال عمر بن الخطاب لما نزلت (زين للناس حب الشهوات) قلت : الآن يارب حين زينتها لنا ؟ فنزلت : (**قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا ..**)

(١)انظر ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٥ / ٣٦٦ .

{١٥} (وما الحياةُ الدُّنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ وللدَّارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتَّقُون أفَلا تعْقلُون) (١)

قال المفسرون : قوله : (**وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو**) أي إنما غالبها كذلك : فهي لعب لا دوام لها ولا غاية بغير الإيمان . . وقد تأملت كثيراً في حقيقة الحياة الدنيا فوجدتها لا تنتهي بهدف من الأهداف السّامية فهي طعام وشراب ، وزواج ومرح ، وأحزان وهموم تتخلل كل ذلك ، ونظرت إلى أقصى ما يتمناه الإنسان في دنياه :

- إقطاعيات تدر الأرباح والإنتاج .   - خدم وحشم .
- سيارات وطائرات خاصة   - قصور حجراتها مكيفة مهيأة . . ثم ماذا ؟

يموت الإنسان ليترك لغيره ما جمعه فماذا حقق لنفسه ؟

لقد عاش أياماً أكل فيها وشرب ، وعاش حياة الحيوان . . إلا أن يكون في جانب الإيمان . . قال تعالى مبيناً حال الذين كفروا : (**ويَأكُلون كما تأكُلُ الأنعَامُ والنَّارُ مثْوىً لهُمْ**) .   (محمد : ١٢)

ولهذا نرى الإنسان بدون إيمان لا يساوى شيئا لأنه لم يحقق أي غاية من وجوده (**ذَرْهُم يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِم الأملُ فسوف يَعْلَمُون**) (الحجر : ٣) قصور تركها . . وترف انهارت مظاهره ، والملاهي والجواري . . كلها ضاعت وغارت ، ولم يبق أمامه إلا الخراب قبر مظلم ، وصحيفة خاوية . . وحساب عسير ، وهَمٌّ دائم وعذاب أليم .

الإيمان وحده هو المنجي . . . بالإيمان يضاء القبر حتى يصير روضة من رياض الجنة ، وبالعمل الصالح تمتلئ الصحيفة ويهون الحساب ، وتحل السعادة الدائمة محل الهمّ المقيم والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟ .

{١٦} (ومن آياته أنْ خَلَقَكُمْ من تُراب ثمَّ إذَا أنتُمْ بشَرٌ تنْتَشرونَ ، ومن آياته أنْ خَلَقَ لكُم من أنْفُسكم أزْواجاً لتسكُنُوا إليْها وجَعَل بَينكُم مودة ورَحمة . إنَّ في ذَلك لآياتٍ لِقَوم يتَفكَّرون * ومن آياته خَلْقُ السَّموات والأرْضِ واخْتِلاف ألْسنَتِكُمْ

---

(١) الأنعام : ٣٢ .

والوانكم إنَّ في ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامُكُمْ بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إنَّ في ذلكَ لآيات لقوم يسمَعُونَ * ومنْ آياته يُريكُم البَرْقَ خوفاً وطمعاً ويُنزِّلُ مِنَ السَّماء ماءً فيُحيي به الأرضَ بعْدَ موْتها إنَّ في ذلكَ لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أنْ تَقُومَ السَّماءُ والأرضُ بأمْرِه ثمَّ إذَا دَعَاكُم دَعْـــوةً منَ الأرْضِ إذَا أنتُم تخرجُون * ولهُ مَنْ فــي السَّمَوات والأرْضِ كلٌّ له قانِتُون)

(الروم : ٢٠ - ٢٦)

هذه آيات متواليات تجعل الدنيا ذات مغزى ، وتحولها إلى وسيلة ومطية للقرب من الله تبارك وتعالى : وتأمل إلى الآيات تسوقها فى مجال البشر ..

أ - الخلق من التراب والانتشار فى كل مكان

ب - ثم خلق الأزواج . فيها السكن والمودة والرحمة .

جـ - ثم اختلاف الألسنة والألوان والأحوال ....

د - ثم منام الإنسان ليلاً ونهاراً .

هـ - ثم التطلع الدائم إلى فضل الله . يستوى فى ذلك المؤمن والكافر ..

ومن الآيات الكونية آية السحاب وما فيه من برق يراه الإنسان فينبعث فى نفسه الخوف مما يحمله من معانى الصعق . وخطف الأبصار .. كما يستثير في النفس الطمع لما يحمل من احتمالات المطر والخصب ثم الماء ينزل من السماء لإحياء الأرض وبعثها بعد موتها .....

والآية الكبرى . المتمثلة في القانون الذي يسيِّر السماء والأرض (أنْ تقومَ السماءُ والأرضُ بأمره) [١] (الروم : ٢٥)

ثم القدرة العظيمة على إحياء الموتى (إذَا دعاكُم دعوةً من الأرضِ) .

وأخيراً تأتى آية الخضوع لله .. فالكل قانت [٢] له سواء في ذلك المؤمن وغير المؤمن ..فهى آيات متواليات يهتز لها العقل ويحيا بها الضمير .

{١٧} (ولقدْ خلقْنَا فوقكُم سَبعَ طرائقَ ومــا كُنَّا عن الخَلْق غافلين ، وأنْزلْنَا من السَّمَاء ماءً بقدر فأسكنَّاه في الأرْض وإنَّا عَلَى ذَهاب به لقَادرونَ فأنْشأنَا لكُمْ به جَنات من نَخيلٍ وأعْنَاب لكُم فيها فواكهُ كثيرةٌ ومنها تأكلونَ * وشَجَرة تخرجُ منْ

---

(١) أى حسب أمره وتقديره سبحانه وتعالى كما قال جل ذكره " وأوحى فى كل سماء أمرها »

(١) خاشع خاضع .

طور سَيْنَاءَ تنبتُ بالدُّهْنِ وصبْغٍ للآكلينَ * وإنَّ لكُمْ في الأنْعـام لعبْرةً نُسقـيكُم مما في بُطُونهـا ولـكم فـيـهـا مَنَافِعُ كـثـيـرةٌ ومنْهـا تأكُلونَ * وعَليْهـا وعَلَى الـفُلْك تُحمَلونَ) (١)

هذه الآيات تأخذ بيد المؤمن في إطلالة سريعة على مشارف الكون ، إلى مداخل الحياة وأسبابها ، إلى المطالب العاجلة للإنسان .. إنها توسع دائرة الإدراك لدى المؤمن :

* سبع طرائق فوقكم * ماء ينزل من السماء ويستقر فيها فلا يسرع إليه التبخّر .. وغيره .* إن الله قادر على أن يذهب به كما قال تعالى (**قل أرَأيْتُمْ إنْ أصْبح ماؤكُم غَوْراً فمن يَأتيكُم بماءٍ مَعِينٍ**) . (الملك : ٣٠)

والمؤمن حين يقرأ هذه الآية عليه أن يقول « الله رب العالمين » .

* الجنات المتفاوتة من نخيل . وأعناب . وفواكه . كثيرة .

* الأنعام . مسخرة للإنسان .. طعاماً .. وخدمة له ....

{١٨} (**فَلْينْظُر الإنْسانُ إلى طَعامه * أنّا صَبَبْنا الماءَ صبّاً * ثمَّ شَقَقْنا الأرْضَ شقًّا * فَأنْبتْنا فيهَا حبًّا * وعنباً وقضْباً * وزيْتُوناً ونخْلاً * وحَدائِقَ غلْباً * وفاكهةً وأبًّا * متاعاً لكُم ولأنعامكُم**) (٢)

* من أنزل الماء من السماء ؟ * من الذي مهد الأرض وشقها وهيأها .؟

* من الذى أنبت النبات والأشجار والفواكه ..؟

إنه الله سبحانه وتعالى : فما نزل الماء بأمر الإنسان ، وما سخرت الأرض طاعة لبنى آدم ... بل إن الله تعالى يسّر هذه الأشياء للإنسان كى يتمتع بها ، ويتخذها عبرة وعظة .

وتوقف – أخى القارئ – أمام بداية الآيات ونهاياتها :

** في البداية أمر « ... فلينظر ... » ** وفي النهاية « ... متاعاً لكم ولأنعامكم »

والربط بينهما يخلق جواً من الفكر يُفرض على العاقل ..والنظر الصائب يحتم على صاحبه أن ينجو بنفسه ، ويرتفع بها عن مشاركة الأنعام والاكتفاء

---

(١) المؤمنون : ١٧ – ٢٢ .

(٢) عبس : ٢٤ ـ ٣٢ .

بمساواتها في المتاع ..

إن العاقل عليه أن يرتفع بالإيمان والنظر إلى الآخرة .

{١٩} (**أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها .. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم**) [١]

حينما يتأمل الإنسان آيات القرآن الكريم التي وقفت بالإنسان على مشارف الآيات الكونية . يظن أن عمله في هذه الحياة لا يتمثل إلا في استثارة العقل وكأني بالآيات تنقل المؤمن من إطار العامل المادي والتطلع إلى زينتها . إلى غايته في الحياة ، والهدف من الخلق ، وهو التأمل والتعقل ....

* السماء وما فيها من دقة . * والليل وما يحمله وما يعنيه من مظاهر الحيوية .

* والأرض التي بسطت . * وماؤها يخرج منها ويعود فيها لتتكرر بذلك دورات الحياة .

* والجبال ترسي الأرض وتثبتها ...

كل ذلك ليتحقق المتاع ، ولكن تأمل وأنت تقرأ تلك النهاية العجيبة لمشهد الخلق الذي ساقته الآيات لترى ذلك الاشتراك في المتاع بين الإنسان العاقل ، والأنعام التي لا تعقل ، وذلك لتدرك التمايز الضروري الذي يجب أن يستقر في كيان المسلم وعقله وضميره .. ثم لتدرك في ذات اللحظة ما يلحق بالكافر من ضياع . حين يتجمد به المسير إلى غاية المتاع الزائل ......

{٢٠} (**يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون**) [٢] (**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون**) [٣]

هدف المؤمن يجب أن يكون إلى الطيبات ، وهذه دفعة بالمؤمن إلى التسامي والمؤمن ليس له علاقة نسب بربه ... ، فالمولى سبحانه رب الناس . ملك الناس .

---

(١) النازعات : ٢٧ - ٣٣

(٢) البقرة : ١٦٨ - ١٦٩ .

(٣) البقرة : ١٧٢ .

إله الناس .. ولهذا تصدرت الآية الأولى التى بين أيدينا بالنداء لجميع الناس «يا أيها الناس . » أما فى الآيات الثانية من آيات هذه المجموعة فالنداء موجه للمؤمنين خاصة ، ومما يلفت الانتباه : اختلاف ملابسات الأمر فى الآيتين :

فلما كان الأمر موجهاً في الأول إلى الناس جميعاً بما فيهم المؤمن والكافر قال تعالى : (**.. كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً**) فجاء الأمر عاماً بتوجيه الناس إلى الطيب وتحذيرهم من الخبيث . أما الآية الثانية فإنها موجهة للمؤمنين، ولذا جاء الأمر مرتبطاً بالعقيدة فقال تعالى : (**كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا ..**) .

فجعلت الطيب رزقاً للمؤمنين وكأنه خاص بهم .. ثم قرنت الأمر بالأكل من الطيب بالأمر بالشكر على الرزق ، وهذا يذكرنا بقول الله تعالى : (**قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة .**)

فالطيبات للمؤمنين بالأصالة في الدنيا والآخرة ، واشتراك الكافرين فيها اشتراك عرضى فى الدنيا . أما الآخرة فليس لهم منها شئ .

وهذا هو المعنى الذى يخرج به المتأمل من استعراضه للآيتين اللتين عرضناهما في صدر هذا البحث ...

ذكر الله تعالى فى مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما فى الأرض فى حال كونه حلالاً من الله طيباً ، أي مستطابا فى نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، وهى طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه ، من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زينة لهم في جاهليتهم كما في حديث عياض بن حمار الذى فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **يقول الله تعالى : إن كل مال منحته عبادى فهو لهم حلال ، (وفيه) : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم** »

وذكر الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن ابن عباس قال « تليت هذه الآية عند النبى ﷺ : يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال : يا سعد : **أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة . والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من**

السحت والربا فالنار أولى به »

يقول تعالى : آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم الله تعالى وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده ، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ **« أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغُذِّي بالحرام فأنَّى يستجاب لذلك ... ؟ »** (١)

{٢٢} (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٢)

{٢٣} (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (٣)

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى من بنى آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه حياة طيبة فى الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله فى الدار الآخرة . والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت ، وعن ابن عباس : الرزق الحلال الطيب ، وعن علي رضى الله عنه فسرها بالقناعة . وروى عن ابن عباس أيضاً أنها هى السعادة وقال الحسن وغيره : لا يطيب لأحد حياة إلا فى الجنة ، وقال الضحاك : هى الرزق الحلال والعبادة . والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله قال ﷺ **« قد أفلح من أسلم ورُزِق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه »** وقال ﷺ « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها

---

(١) ابن كثير جـ١ صـ ٢٠٩ / ٢١١

(٢) النحل : ٩٧

(٣) النحل : ١١٢.

فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُعطى بها خيراً »(١)

{٢٤} عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » (٢)

من التحفَ بالدنيا ظل عاريا ، ومن اتخذها داراً صار ضائعا ، ومن جمع لها فهو مجنون ، وكيف تتخذ الدنيا داراً وأنت راحل عنها ؟ وكيف تجمع متاعا لتتركه ؟

وهذا الحديث يستثير فى النفس نوازع الحرص ودوافع النجاة فمن أحب نفسه لم يتخذ الدنيا داره ، ومن رغب في السعادة جمع للآخرة وادَّخر للجنة .

{٢٥} « فكأيّن من قرْيةٍ أهلكْناها وهى ظالمةٌ فهى خاوية على عروشها وبئرٍ مُعَطَّلةٍ وقصرٍ مَشيدٍ » (٣)

{٢٦} (وكأيِّن من قرية أمْليتُ لها وهى ظالمةٌ ثمّ أخذْتُها وإلىّ المصيرُ) (٤).

الظلم باب واسع للهلاك ، وإذا كان الظلم مهلكة للفرد فى الآخرة فإن ظلم الجماعة لا تؤجل عقوبته إلى الآخرة ، وإنما تعجل العقوبة للمجتمع الذى يسود فيه الظلم ويرضى به .. مع ما ينتظر الظالمين من جزاء فى الآخرة .

وتأمل الحال التى أهلكت فيها القرى " وهى ظالمة "

* والآيات التى بين أيدينا من سورة الحج ، وقد تقدمت الآية التى ذُكر فيها التصريح بإهلاك القرية الظالمة على الآية التى فيها الإمهال كما هو واضح أمامك . وفي هذا التقديم ما يشعر بالتحذير من النهاية للمجتمع الظالم وكأن السورة أخرت الإمهال فى السياق حتى لا يغتر الظالمون بالإمهال . فيسبق التحذير والتنبيه .

---

(١) ابن كثير جـ ٢ ص ٦٣٤ .

(٢) قال فى مجمع الزوائد : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة .

(٣) الحج : ٤٥ .

(٤) الحج : ٤٨ .

والأسباب أو الدواعي التي تجلب الهلاك تتلخص في الظلم وهو عام في كل مجالات المجتمع بدءاً بالعقيدة . والظلم في العقيدة الشرك كما قال تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم) . ثم الظلم في القانون الاجتماعي .. والاقتصادي .... والثقافي ... والنتيجة الحتمية للظلم . هو الخراب والدمار ..

فتعطلت الآبار رغم القصور المشيدة . وتأمل المفارقات : إذ تعطلت الآبار وموارد الإنتاج فالآبار معطلة ، ويقاس عليها المصانع التي تتوقف أو يعرقل فيها الإنتاج أو تتوجه طاقاتها إلى إنتاج ما لا يفيد ، وكذا المزارع التي تنضب معينها والأرض التي يسيئ أهلها استخدامها [1]

* وترى القصور المشيدة .. علامة على الترف الطاغي . والإسراف المدمر .. انظر كيف تختل الموازين فتتعطل الوسائل وتخرب الديار ، وتعمر القصور . فكيف تستقيم الحياة ؟

{٢٧} (ظَهَرَ الفسَادُ في البَرِّ والبحْرِ بما كَسبت أيدى الناسِ ليذيقَهم بعضَ الذى عَملوا لعلَّهم يرجعُون) [2]

هذه الآيات وسابقتها - بيان لجانب من جوانب الحياة . جانب الإفساد والانهيار ....وذلك لإظهار حقيقة هامة وهى أن الإيمان يضمن للإنسان السعادة في الآخرة برضوان الله كما يضمن له الاستقرار في الدنيا ....

أما الطغيان ومعاندة القوانين الإلهية فهي تُضيِّع على صاحبها سعادة الآخرة ، ولا تضمن له الاستقرار في الحياة الدنيا . وقد ظهر الفساد بسبب سلوك الناس .

هل تذكر مخترعات العلم وما حققته للناس من رفاهية ؟ إن هذه المخترعات ذاتها أصابت الحياة بأضرار بالغة ، فقد تلوثت البيئة وفسد الجو ، كما تآكلت طبقة (الأوزون) بسبب الغازات السامة .. وطبقة الأوزون هي التي تحمي الحياة من هجمات الأشعة تحت الحمراء وما تحمله طبقات الجو من وسائل تدميرية خطيرة تؤثر في الحياة بل وتدمرها .

---

(١) نرى بعض المزارعين يحولون أراضيهم المنتجة إلى أراضٍ للبناء أو يقومون ببيع أتربتها لمصانع الطوب (بالتجريف) وغير ذلك من وسائل التدمير .

(٢) الروم : ٤١ .

الإنسان يبتكر ، ويسخر القانون فيعود عليه الابتكار بوجه من وجوه المنفعة ولكنه يرتد إلى صدره فساداً أو تلوثاً واختلالاً فى قانون الحياة فتظهر الأمراض وتشتد المحن وتتنوع المصائب .. فهل يرجعون ؟ كلا . فالكوارث تشتد والمخاطر تزيد ، ومع ذلك فالإنسان مستمر فى البحث غير عابئ بما يجلبه البحث من متاعب رغم علمه بها ويحضرنى هنا بداية سورة الرَّحْمنُ :

(الرَّحمْنُ علَّمَ القرآنَ . خلقَ الإنسانَ علمه البَيانَ ..) إلى قوله تعالى : **(والسَّماءَ رفَعَها ووضَعَ الميزانَ ألا تطْغَوا فى الميزانِ * وأقيموا الوَزْنَ بالقسْطِ ولا تُخْسرُوا الميزانَ)** (الرحمن : ٨ ، ٩)

والعجيب أن (الميزان) كلمة وردت ثلاث مرات في الآيات : وأول مرة فيها جاءت عقب رفع السماء (ووضع الميزان) والميزان هنا يعنى القانون الذي يحكم السموات كما قال تعالى **(وأوحى فى كل سماء أمرها)** . وعقب ذلك جاء النهى (**ألا تطغوا في الميزان**) أما الموضع الثالث فجاء نهياً فقال سبحانه « **ولا تخسروا الميزان** » وطبيعى أن النهى فى الثانى « **ألا تطغوا .** » معناه أن يحرص الإنسان فلا يطغى في القانون الطبيعى فيسخره لغير ما خلق له . وهذا من عظمة الإسلام .. فقد بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الإنسان سيكتشف القوانين ويحاول تسخيرها لما يتوهم أنه فى صالحه .. فحذر القرآن من ذلك .. وتأمل معى :

* تفجير الذرة : ... هل هو طغيان ؟

* حرب الكواكب وغزوها . هل هو طغيان ؟* هندسة الوراثة والتدخل في الجينات وتغيير الصفات الوراثية ؟

* تسميم الهواء .. والآبار ...

كل هذا ... وغيره ..... طغيان في الميزان .. وهذا فيه اتجاه إلى الفساد الذى ظهر فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، أما النهى فى قوله تعالى (ولا تخسروا الميزان) فهو مُنصبٌ على التحذير من التطفيف في الموازين والمكاييل . وما إلى ذلك فاقرأ وتأمل .

{٢٨} (وقالُوا نَحْن أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحْنُ بمُعذَّبينَ * قل إنَّ ربِّى يبسُطُ الرِّزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلمُونَ . ومَا أمْوالُكم ولا

أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون) [1] .

الدنيا .. ليست فى ذاتها سبباً للقرب من الله تعالى * وها نحن أولاء أمام قوم ضاعت عليهم آخرتهم . فلقد أوقعهم الكفر فى الهاوية وأوقعتهم الدنيا في حبائلها ،وراودتهم عن أنفسهم فانصاعوا لها وأسلموها قلوبهم وأمدتهم بإغرائها وإغوائها حتى صاروا عبيداً لها ، وفتحت لهم أبواب الزينة فأغرموا بها وعشقوها حتى قالوا « **نحن أكثر أموالاً وأولاداً** » ولما أحسوا بمتعة الأموال وسيطرتها ولذة الأولاد ، وما تخلقه فى النفس من غرور وكبرياء قالوا « **وما نحن بمعذبين** » وتوضح لهم الآية أن الرزق من عند الله هو الذي يزيد فيه لمن يشاء وينقصه ممن يشاء وتحسم الآية القضية (**ومَا أموالكمْ ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى**) [2] فالأموال والأولاد ليست باباً لرضوان الله تعالى ويأتى الاستثناء فى الآية مؤكداً لقضية الإيمان « **إلا من آمن وعمل صالحاً** » فبالإيمان يتحول لعب الدنيا إلى جد ، وزينتها إلى ثواب وجزاء ونعيم . « **فأولئك لهم جزاء الضعف** » أي جزاءً مضاعفاً وثواباً كثيراً ثم « **وهم في الغرفات آمنون** » .

{٢٩} فى حديث أبى كبشة الأنمارى :

« . إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول : لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو نيته فأجرهما سواء * وعبد رزقه الله مالاً ، ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقى فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه

---

(١) سبأ : ٣٥ - ٣٧ .

(٢) فى الآية نكتة بلاغية تتمثل فى مراعاة التنظير ، فلما ورد الحديث على لسان الكفار مؤكداً بحرف الجر الزائد حيث قالوا (وما نحن بمعذبين) جاء الرد مؤكداً بنفس حرف الجر الزائد (الباء) فى قوله (وما أموالكم .. بالتى تقربكم) هذا من عجائب النسق القرآني ودقته .

بعمل فلان فهو نيته فوزرهما سواء) (1)

وهذا الحديث يوضح أصناف الناس في الدنيا :

صنفان ناجيان : وهما صاحب المال العالم الذي ينفقه في وجهه ، ثم رفيقه الذي أعطى علماً ولم يُؤْت مالاً فتمنى أن يكون عنده مثل صاحبه ليعمل مثله وينفق في سبيل الله ، فأجرهما سواء .

وصنفان هالكان : صاحب المال الذي لا يتصرف فيه بعلم ، بل بجهل يخبط فى ماله بلا علم ، فهذا بأخبث المنازل ، ثم قرينه الذى لم يؤت مالاً ولا علماً فيتمنى أن يكون ذامال ليخبط فيه كما يخبط صاحبه فهما فى الوزر سواء .

فتأمل - هداك الله - فضل العلم مع المال ثم فضل النية الصالحة مع العلم ، واحذر - رعاك الله - أن تكون صاحب مال بلا علم أو تكون صاحب نية خبيثة بلا مال ولا علم فتكون من الهالكين . وإن لم تكن عالماً فصاحب العلماء ، واسأل وتفقه فى الدين عسى أن تكون من الناجين ، أسأل الله لي ولك العافية {30}

(إنَّ الذينَ كفروا لو أنَّ لهُم ما في الأرضِ جميعاً ومثلَه معه ليفتدُوا به من عذابِ يومِ القيامةِ ما تُقُبِّل منهم ، ولهم عذابٌ أليم) (2)

هذه هى حقيقة الدنيا ، وذلك هو مقدارها لمن فهم وعقل .. فهى - يوم القيامة - لا تصلح مقدار فداء . لمن يفتدى . ولا قيمة لمتاعها ، وقد روى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ « يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له يا ابن آدم : كيف وجدت مضجعك ؟ فيقال : شر مضجع ، فيقال : هل تفتدى بتراب الأرض ذهباً ؟ قال : فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى : كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار »

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار (**يَوم لا ينْفعُ الظَّالمِين معذرتُهُمْ ولهم اللعنة ولهم سُوءُ الدَّارِ**) (غافر : 52) وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى : **(فلا تُعْجِبْك أمْوالُهم ولا أوْلادهم إنّما يُريد اللهُ ليعذبَهُم بها في الحياة الدنيا وتزهقَ أنْفُسُهم وهم كافرون)** (التوبة : 55) **وقال تعالى : (لا يَغرنَّكَ تقلُّبُ**

(1) قال الترمذى : حديث حسن صحيح

(2) المائدة : 36 .

الذين كفروا في البلاد متاعٌ قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧) وقال :(**إن الذين كفروا**) أي بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه (**لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار**) (آل عمران : ١٠) أي حطبها الذى تسجّر به وتوقد به كقوله تعالى (**إنكُمْ ومَا تعبدون من دُونِ اللهِ حَصبُ جهنَّم**)
(الأنبياء : ٩٨)

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أم الفضل (وهى أم عبد الله بن عباس) **أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال : هل بلغت ؟ يقولها ثلاثاً : فقام عمر بن الخطاب - وكان أواها - فقال : اللهم نعم ، وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ليظهرنَّ الإيمان حتى يرد الكفر إلى مواطنه ، وليخوضنَّ رجالٌ البحار بالإسلام ، وليأتينَّ على الناس زمان يقرؤون القرآن فيقومونه ويعلمونه فيقولون قد قرأنا وقد علمنا ، فمن هذا الذى هو خير منا ؟ فما فى أولئك من خير ، قالوا : يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال : أولئك منكم ، أولئك هم وقود النار**) (١)

وهذه رواية ابن مردويه قال ابن كثير : ثم رواه من طريق موسى بن عبيدة عن محمد بن إبراهيم عن بنت الهاد عن العباس بن عبد المطلب بنحوه .

{٣١} عن المستورد قال: قال رسول الله ﷺ : ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بماذا يرجع » (٢)

أنت الآن أمام موازنة بين الدنيا والآخرة ... وهى موازنة دقيقة يؤيدها القرآن الكريم كما سبق أن رأينا ، والحديث يوضح حقيقة الحياة بمثال قريب .. بأن يضع الإنسان أصبعه في اليم (البحر) ... فبماذا يرجع ؟ هل يرجع بشئ يعلق به ؟ وهل يعلق بأصبعك ما يروى عطشاً ؟ وهل يبقى على أصبعك ما يبلل ورقة ، أو يزيل أقل شئ ؟ كلا . لا هذا ولا ذاك . هذه هى حقيقة الدنيا وتفاهة من يتعلق بها ، والآخرة على أوضح ما تكون ثراء وقوة وعمقاً وعطاء متجدداً ، والعاقل من عمل للباقية فى الفانية .

---

(١) ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٣ .

(٢) قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

{٣٢} أخرج مسلم والترمذى والنسائى عن المستورد بن شداد رفعه « والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع » وقال صلى الله عليه وسلم « **موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها** » فإن قدر السوط من الجنة إذا كان خيراً من الدنيا فيكون الذى يساويها مما فى الجنة دون قدر السوط .. جاء فى رواية « **واقرأ إن شئت فمن زُحزِحَ عن النار وأُدخِلَ الجنةَ فقدْ فازَ** »

قال القرطبى : هذا نحو قوله تعالى « قل متاع الدنيا قليل » وهذا بالنسبة إلى ذاتها ، وأما بالنسبة إلى الآخرة فلا قدر لها ولا خطر ، وإنما أورد ذلك على سبيل التمثيل والتقريب وإلا فلا نسبة بين المتناهى وبين ما لا يتناهى وإلى ذلك الإشارة بقوله « فلينظر بم يرجع » ووَجْهُه أن القدر الذى يتعلق بالأصبع من ماء البحر لا قدر له ولا خطر ، وكذلك الدنيا بالنسبة إلى الآخرة ، والحاصل : أن الدنيا كالماء الذى يعلق فى الأصبع من البحر والآخرة كسائر البحر »[1]

{٣٣} عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ما ذئبان ضاريان فى حظيرة يأكلان ويفسدان بأضر فيها من حب الشرف وحب المال فى دين المرء المسلم »[2]

هذا جانب من جوانب الخطر على الإيمان ، وهذا من جوانب حقيقة الحياة الدنيا وحب الشرف يجعل المؤمن حريصاً على الدنيا كما يجعله أقرب إلى الرياء ، يراعى الخلق ويحافظ على مكانته بينهم ، وشرف المؤمن فى إيمانه ، ومكانته الحقيقية عند ربه فى الآخرة لا فى دنيا الناس ، أما حب المال فهو يدفع الإنسان إلى الكذب والخيانة والخديعة والغش ، وقد يدفعه حب المال إلى تضييع الحقوق فيه فلا يدفع الزكاة ولا يتصدق ...

إن حب المال والشرف ذئبان جائعان ، إذا أرسلا في نفس المؤمن أهلكا فيه الدين وقضيا على الإيمان كما تقضي الذئاب الجائعة على الغنم .

{٣٤} عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قال النبي ﷺ : نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » [1]

---

(١) راجع فتح البارى جـ ١١ صـ ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٢) رواه البزار وفيه قصة ابن العلاء وقد وثق وبقية رجاله ثقات . قاله فى مجمع الزوائد .

وفى رواية الدارمى بزيادة : « إن الصحة والفراغ نعمتان من نعم الله »

قال ابن بطال : معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه فمن فرط فى ذلك فهو المغبون ، وأشار بقوله « كثير من الناس » إلى أن الذى يوفق لذلك قليل ، وقال ابن الجوزى : قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنيا ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون ، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التى يظهر ربحها فى الآخرة فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط (أى السعيد) ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم ولو لم يكن إلا الهرم كما قيل :

يسر الفتى طول السلامة والبقا … فكيف ترى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة … ينوء إذا رام القيام ويحمل .

وقال الطيبي : ضرب النبى ص للمكلف مثلاً بالتاجر الذى له رأس مال فهو يبتغى الربح مع سلامة رأس المال فطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ، ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن **فالصحة والفراغ** رأس المال وينبغى له أن يعامل الله بالإيمان ، ومجاهدة النفس وعدو الدين ليربح خيرى الدنيا والآخرة ، وقريب منه قول الله تعالى : (**هلْ أدلكُمْ على تجارةٍ تُنجيكُمْ من عذابٍ أليم ..**) (الصف : ١٠)الآيات وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان لئلا يضيع رأس ماله مع الربح .

وقوله في الحديث **« مغبون فيهما كثير من الناس »** كقوله تعالى : (**وقليلٌ من عبادِيَ الشكُور**) (سبأ : ١٣)فالكثير فى الحديث فى مقابلة القليل في الآية .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى : اختلف في أول نعمة لله على العبد فقيل الإيمان ، وقيل الحياة وقيل الصحة ، والأول أولى فإنه نعمة مطلقة أما الحياة والصحة ، فإنهما نعمتان دنيويتان ، ولا تكون نعمة حقيقية إلا إذا صاحبت الإيمان وحينئذ يغبن فيها كثير من الناس أى يذهب ربحهم أو ينقص . فمن

---

(١) فتح البارى جـ١١ ص ٢٣٣ / ٢٣٤ والغبن بالسكون في البيع أما الغبن بالفتح وبالتحريك فهو في الرأى .

استرسل مع نفسه الأمارة بالسوء الخالدة إلى الراحة فترك المحافظة على الحدود والمواظبة على الطاعة فقد غبن ، وكذلك إذا كان فارغاً فإن المشغول قد يكون له معذرة بخلاف الفارغ فإنه يرتفع عنه المعذرة وتقوم عليه الحجة " أ.هـ.

* * *

حب الدنيا وخطره

اولا : خطر التعلق بالدنيا

بين يدى الآيات التى نسوقها[1] لبيان خطر التعلق بالدنيا نجد من الواجب علينا أن نتأملها ونقدم العبرة المأخوذة منها ، لعلنا نساعد على الخروج بثمرة قراءتها فهماً واقتناعاً ثم سلوكاً واقتداءً والله وحده الهادى إلى سواء السبيل

وتأمل آيات سورة يونس (الفقرة أ) لتجدها تقدم لك صفات أهل النار – والعياذ بالله – **وأولها** – أنهم لا يرجون لقاء الله ولا يعملون له لأنهم لو رجوا لقاءه لقدموا بين يديه عملاً صالحاً ، **وثانيها** : أنهم رضوا بالحياة فقصرت همتهم عما سواها ، وبذلوا الطاقة في الحصول على متعها وملذاتها واطمأنوا بما نالوه منها وركنوا إليه وفرحوا به ، **وثالثها** : أنهم غفلوا عن آيات الله وكيف يتيقظون لها وقد غرقوا في العاجلة وغرتهم الفانية فكان مصيرهم إلى النار .

أما الآيات فى سورة إبراهيم (الفقرة ب) فهى عميقة الدلالة

* فالذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لابد أن يكونوا في فريق الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً .

* والذين يستحبون الحياة الدنيا يميلون إلى الشهوات .

* والذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لا يعجبهم أمر الدين لهم بالالتزام .

* والذين يستحبون الحياة الدنيا .. يروق لهم الانطلاق فى الملذات حراماً أو حلالاً بلا حدود .

* وطبيعى أن يكون هذا السلوك عرقلة وصداً عن سبيل الله شعر أصحابه أم لم يشعروا .

* وأصحاب الدنيا ومحبُّوها .. هم كارهو الآخرة والغافلون عنها .

* إنهم يصدون عن سبيل الله .. بل يتدخلون في السبيل القويم يعرقلون

---

(١) تأتى هذه الآيات فى الصفحة القادمة ،تأملها معنا .

المسير إليها ، ويفتّون في أعضاد المؤمنين ، ويحاربون الملتزمين ويطاردون المتقين سراً وجهراً .

أما آيات سورة الأنعام (الفقرة جـ) فهي تحذير للمؤمنين ، وأمر لهم أن يتركوا ويفارقوا الذين غرتهم الحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وفرحوا لها لأنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ، ثم هي أمر بدوام التذكير والتعليم حتى لا يؤخذ الإنسان على غرة وغفلة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين أما آيات سورة الجاثية (الفقرة د) فإنها توضح حال محبى الدنيا والمغرورين بها يوم القيامة فمصيرهم إلى النسيان والإهمال(اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ..) (الجاثية : ٣٤) والآن إلى الآيات لتقرأها في تؤدة وتمعن . ودع فكرك يعيش فى جوانبها وافتح قلبك لمدلولاتها :

أ - (إن الذين لا يَرْجُون لقَاءَنَا ورضُوا بالحياة الدنيا واطْمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غَافلون ، أولئك مَأْوَاهُم النَّار بما كانوا يكْسبون ..) (١)

ب - (.. وويلٌ للكافرين من عذابٍ شديد * الذين يَسْتَحبُّونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرة ويصُدُّون عن سَبيل الله ويبْغُونَها عوَجاً أولئكَ في ضَلال بعيد) (٢)

جـ - (وذَر الذين اتَّخَذوا دِينَهُم لَعباً ولَهْواً وغرَّتْهم الحياةُ الدُّنْيا وذَكِّر به أنْ تُبْسَلَ نفس بما كَسبتْ ليس لها من دُوَن الله وليٌ ولا شَفيعٌ ، وإن تَعْدلْ كلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخذْ منها ، أُولئكَ الذين أبْسلوا بما كَسبُوا لَهُم شَرَابٌ من حَميم وعَذابٌ أليمٌ بما كانوا يكْفُرون) (٣)

د - (وَقيلَ اليَومَ نَنْساكُم كَما نَسيتُم لقاءَ يَوْمكُمْ هَذا ومَأْواكُم النَّارُ ومَا لكُم من نَاصرينَ * ذلكُم بأنَّكُم اتَّخَذْتُم آياتَ اللّهِ هُزُواً وغَرّتكُم الحياةُ الدُّنْيا فاليومَ لاَ يُخْرَجُونَ منْها ولاَ هُمْ يُسْتَعْتَبون) (٤)

(١) عن أبى هريرة « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر » (٥)

---

(١) يونس : ٧ ، ٨ .

(٢) إبراهيم : ٢ ، ٣ .

(٣) الأنعام : ٧٠ والإبسال : الهلاك .

(٤) الجاثية : ٣٤ ، ٣٥

(٥) قال شارح فيض القدير : رواه أحمد فى مسنده من رواية يعقوب بن عبد الرحمن عن أبى حازم عن سعيد المقبرى (عن أبى هريرة) رمز المصنف لحسنه ، وخرجه البيهقى فى الشعب بلفظه عن أبى هريرة ثم قال : استشهد به البخارى ، وقضية صنيع المؤلف أن هذا لم يخرجه أحد من الستة وإلا لما عدل عنه وهو ذهول فقد خرجه النسائى باللفظ الذى خرجه به أحمد ومن نفس الوجه (رقم الحديث ٨٢٩٥) .

قال ابن بطال : إنما كانت الستون حداً لهذا لأنها قريبة من المعترك وهى سن الإنابة والخشوع وترقب المنية فهذا إعذار بعد إعذار لطفاً من الله بعباده حتى نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم ، ثم أعذر إليهم فلم يعاقبهم إلا بعد الحجج الواضحة وإن كانوا فطروا على حب الدنيا وطول الأمل لكنهم أمروا بمجاهدة النفس فى ذلك ليمتثلوا ما أمروا به من الطاعة وينزجروا عما نهوا عنه من المعصية .

(٢) في صحيح مسلم عن حرملة عن أبى هريرة « **قلب الشيخ شاب على حب اثنين طول الحياة وحب المال** »

قال النووى : إن قلب الشيخ كامل الحب للمال متحكم فى ذلك كاحتكام قوة الشاب فى شبابه .

(٣) قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدومه فوافقت صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ فلما انصرف تعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم وقال : **أظنكم سمعتم بقدوم أبى عبيدة وأنه جاء بشئ ؟ قالوا : أجل يا رسول الله . قال : فأبشروا أو أمّلوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم »** [١]

التنافس من المنافسة وهى الرغبة فى الشئ ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه ، وأصلها من الشئ النفيس فى نوعه يقال : نافست فى الشئ : منافسة ونفاسة ونفاساً ونفُس الشئ (بالضم) نفاسة صار مرغوباً فيه ، ونفِست (**بالكسر) بخلت ونفست عليه : لم أره أهلاً لذلك .**

أما قوله : فتهلككم : أى لأن المال مرغوب فيه فترتاح النفس لطلبه فتُمنع منه فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية إلى الهلاك .

قال ابن بطال : فيه أن زهرة الدنيا ينبغى لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها وشرّ فتنتها ، فلا يطمئن إلى زخرفها ولا ينافس غيره فيها .

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٢٤٧ .

(٤) عن أبى هريرة قال : **قال رسول الله ﷺ : « ما ذئبان ضاريان جائعان باتا في زريبة غنم أغفلها أهلها يفترسان ويأكلان بأسرع فسادا فيها من حب المال والشرف فى دين المرء المسلم »** [١] .

المال والشرف ذئبان ينهشان دين المؤمن ، ويفسدانه . ويفترسان عقيدته .

وإذا كانت الذئاب الضارية تمثل أشد خطر على الغنم فإن الحرص على المال ، والحرص على الشرف أشد خطراً ، ففى سبيل المال يتنازل الإنسان عن كثير من القيم .

* فالصدق قد لا يناسب جمع المال فيضطر إلى الكذب حتى يصير الكذب عنده عادة .

* والغش قد يؤدى إلى المزيد من الأرباح فيفقد الإنسان جوانب عديدة من الإخلاص ومراقبة الله تعالى .

* والبخل بالمال نتيجة حبه يدفع المؤمن الى الشح فيبخل على نفسه وأهله ، ويبخل بحق الله تعالى ، فيرفض دفع الزكاة أو يتكاسل عنها [٢]

أما حب الشرف والجاه فهو أخطر وأشد لأنه مرتبط بحاجات النفس وتطلعاتها: فقد يدفع صاحبه إلى الرياء والسمعة . فيفقد الإخلاص ، ويضيع عمله .

* وهو يجعل الإنسان بعيداً عن اليقين ،، عاملاً للدنيا ناسياً الآخرة مضيعاً لحقوق الله .إلى غير ذلك من الموبقات الجسام .

(٥) **(وإذْ قُلتم يا مُوسى لن نَصْبر على طعامٍ واحدٍ فادْعُ لنا ربَّكَ يُخْرِجْ لنا**

---

(١) قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده جيد ، وقد مر من رواية الترمذى فى الباب السابق فقرة ٣٣ .

(٢) وأمر ثعلبة بن حاطب مشهور حيث طلب من الرسول ﷺ أن يدعو له بالغنى فلما كثر ماله ضنّ وبخل بالزكاة .. حتى رفضها منه رسول الله ﷺ كما رفضها أبو بكر وعمر . وهو الذى نزلت فيه الآية " ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن " الآيات .

مما تُنْبِتُ الأرضُ من بَقْلِهَا وقِثَّائِهَا وفُومِهَا وعَدَسِهَا وبَصَلِهَا ، قَالَ : أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ اهْبِطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ والمسْكَنَةُ وبَاءُوا بِغَضَبٍ من اللَّه ذلكَ بأنَّهم كانوا يكْفُرون بآيات اللَّه ، ويقْتلُون النبيِّين بغير الحقِّ ، ذلك بما عَصَوا وكانُوا يعتدون) (البقرة : ٦١)

لقد رزق الله بنى إسرائيل المن والسلوى (ورزق ربك خير) ولكنهم تمردوا على هذا الرزق .وقالوا : لن نصبر على طعام واحد .

ورغبوا في البقل والقثاء والعدس والفول والبصل ..فاستطابوا الذى هو أدنى .. ورضوا به . وتركوا الذى هو خير فماذا كانت النتيجة ؟ لقد كانت نتيجة ذلك الهبوط . حتى ضربت عليهم الذلة والمسكنة . حيث ألهاهم مشتهى البطون عن رزق الله . وتتابعت الأحداث إلى أن باءوا بغضب من الله . وحين تمردوا على رزق الله .. تمردوا كذلك على رسل الله .. فالإيمان قرين الأسباب . فإذا هان عليهم نعم الله . وتمردوا على اختيار الله لهم ، كانت الرسالة على نفوسهم أهون . وهذا ما حدث إذ تجرءوا على رسل الله فقتلوهم ..

(٦) (بل متَّعْنَا هَؤُلاءِ وآباءَهُم حتَّى طَالَ عليهم العُمرُ ، أفلاَ يَرَوْنَ أنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أطرافِهَا ؟ أفَهُم الغَالِبون؟) (الأنبياء : ٤٤)

فهو المتاع الطويل الموروث الذى أفسد فطرتهم ، والمتاع ترفٌ ، والترف يفسد القلب ويبلد الحس ، وينتهى إلى ضعف الإيمان بالله ، وانطماس البصيرة دون تأمل آياته ، وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ويصلها دائماً بالله فلا تنساه ومن ثمَّ يلمس السياق وجدانهم بعرض المشهد الذى يقع كل يوم فى جانب من جنبات الأرض حيث تطوى رقعة الدول المتغلبة وتنحسر وتتقلص فإذا هى دويلات صغيرة وكانت امبراطوريات ، وإذا هى مغلوبة على أمرها وكانت غالبة ، وإذا هى قليلة العدد ، وكانت كثيرة ، قليلة الخيرات وكانت فائضة بالخيرات .

والتعبير يرسم يد القدرة وهى تطوى الرقعة وتنقص الأطراف وتزوى الأبعاد .. (١)

(١) فى ظلال القرآن ص ٢٣٨١ .

(٧) عن عقبة بن عامر الجهني عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الله يعطي العبد وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه له استدراج ثم نزع بهذه الآية : (فلمَّا نسُوا ما ذُكِّرُوا به فتَحْنَا عَلَيْهِم أبْوابَ كلِّ شيءٍ حتَّى إذَا فرِحُوا بما أوتُوا أخَذْنَاهم بَغْتةً فإذا هم مبلسون فقُطِعَ دابِرُ القومِ الذين ظلَمُوا والحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِين) (الأنعام : ٤٤ ، ٤٥) ما أخطر الابتلاء في الدنيا .. !! فإنه من الصعب على الإنسان أن يتبين حقيقة هذا الابتلاء وخصوصاً إذا كان ابتلاء بالنعمة .والحديث يعطي بعض المؤشرات الهامة التي يجب ألا تغيب عن بال كل إنسان وبخاصة المؤمن .

* فإن النعمة إذا زادت مع الإقامة على المعصية فذلك استدراج أي مكرٌ بالعاصي وتدبير ومكيدة له .. لأنه يزداد غفلة عما ينتظره ويشتد فرحة بما يزيد في يده .

وتأتي الآية منذرة في حسم (فلما نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) وحينما انفتحت الأبواب اشتدت الفرحة وبينما هم في فرحتهم وغفلتهم .. جاءتهم البغتة فإذا هم مبلسون وكأني بالحديث . والآية الكريمة في سياقه تضع الصورة في إطار الذهن الواعي .. حتى إذا جاءت المفاجأة ووقعت الواقعة كان العذر مقدَّماً .. كيلا يعتذر معتذر .

(٨) عن قتادة بن نعمان بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : نزل عليَّ جبريل بأحسن ما كان يأتيني صورة فقال : إن السلام يقرئك السلام يا محمد ويقول : إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرري وتنكدي وتضيّقي وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ، وتوسعي وتسهلي وطيبي لأعدائي حتى يكرهوا لقائي فإني جعلتها سجناً لأوليائي وجنة لأعدائي » (١)

إحساس المؤمن الدائم بمرارة الدنيا ، فهو مسئول عما لديه فيها ، ويخاف الحساب ، كما أنه مطالب بالأعمال فيها ويخشى التقصير إذا ذكر وحشة القبر فزع ، وإذا تذكر النفخ في الصور والصعق بكى وكيف يسعد من يدرك أن عليه

---

(١) قال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه من لم يُعرف .

حافظين كراماً كاتبين ؟ وكيف يهنأ له عيش من أيْقن أن ملك الموت ببابه يستعد للدخول بلا استئذان ؟ إن المؤمن يدرك عظمة الله فيحسّ بالتقصير ويدرك نعم الله عليه فيشعر بالخجل لأنه لا يستطيع أن يوفى شكرها ، فالدنيا ضيقة شديدة هى سجن المؤمن ، ولكنها سهلة طيبة واسعة للكافر فهى جنته ، ولهذا فالمؤمن يسعد لقرب لقاء الله والكافر يكره هذا اللقاء .

(٩) عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ « **اللهم من آمن بك وشهد أنى رسولك فحبب إليه لقاءك وسهل عليه قضاءك ، وأقلل له من الدنيا ، ومن لم يؤمن بك ويشهد أنى رسولك فلا تحبب إليه لقاءك ولا تسهل عليه قضاءك وأكثر له من الدنيا** »

يكاد الحديث ينطق بمفهومه عن حرص رسول الله ﷺ على المؤمنين قال تعالى :(**عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكُمْ بالمؤمنين رءوفٌ رحيم**)

(التوبة :

١٢٨)

ففى هذا الدعاء للمؤمن رحمة بالمؤمنين وحرص عليهم فهو يدعو لكل من آمن بالله وصدق بالرسالة : -

* أن يكون لقاء الله حبيباً إليه .
* أن يكون القضاء سهلاً عليه يتقبله برحابة الصدر .
* أن يكون نصيبه من الدنيا قليلاً ليكون نصيبه فى الآخرة أكثر أما غير المؤمن فهو الصورة المعكوسة للمؤمن :

* أن لا يحب لقاء الله   * وأن يضيق بالقضاء .
* وأن يعب من الدنيا . فما له في الآخرة من نصيب .

(١٠) أخرج أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : **خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لى : يا ابن عمر مالك لا تأكل ؟ قلت : لا أشتهيه يا رسول الله !! قال : ولكنى أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ، ولو**

شئت لدعوت ربي عز وجل فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين ؟ فوالله ما برحنا حتى نزلت (وكَأَيِّن من دَابة لا تَحْمل رزقَهَا اللهُ يَرْزُقُهـا وإياكم وهُو السَّمـيعُ العليمُ) فقال رسول الله ﷺ : إنَّ اللهَ لمْ يأمُرنى بكَنْز الدُّنيا ولا باتّباع الشَّهوات فَمَنْ كَنَزَ دُنْيا يريدُ بها حياةً باقيةً فإنَّ الحياةَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ . ألا وإنِّي لا أكْنِزُ دينَاراً ولا دِرْهمـاً ولا أخبأ رزقاً لغد » (١)

إن النبوة استعلاء على كل جوانب الحياة وعبودية لله وحده وقدوة للأجيال وقد أمد الله نبيه محمداً ﷺ بما يعينه فلم تستعبده الأسباب ، ولم تتحكم فيه الحاجات والضرورات ، ولقد رآه أصحابه يواصل الصيام فأحبوا أن يقتدوا به فنهاهم عن **الوصال في الصوم** ولما قالوا : **إنك تواصل** . وضح لهم أن هذا الأمر من خصائص النبوة واستعلائها فقال « **إني لست كهيئة أحدكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقين .** » فتلك هيئة النبوة وتميزها .

وهنا ملحظ آخر من ملاحظ النبوة فلقد بقي رسول الله ﷺ أربعة أيام لا يذوق طعاماً ، أفكان يصعب عليه أن يدخل بعض حيطان (بساتين) الأنصار في أي يوم من الأيام الأربعة ؟ هل كان يعز عليه أن يلتقط من التمر في اليوم التالي ؟ كلا ..ولكنها دروس النبوة في كسر الأسباب والتسامي عليها حتى يصير المثل مدوياً في أسماع الوجود إلى يوم القيامة فلماذا كان هذا المثل ؟ إنه تمهيد من النبي ﷺ كي يلقي على أمته درساً في اليقين ، وتأمل ملامح الدرس النبوي :

* فمنذ أيام أربعة لم يذق النبي ﷺ طعاماً .

* وليس هذا عن قصور فلو شاء ﷺ لدعا ربه عز وجل فيعطيه مثل كسرى وقيصر .

* ثم يستشف رسول الله ﷺ الغيب بما علمه الله ، وبما فتح له من أبواب الفضل فيقول لابن عمر « كيف بك يا ابن عمر **إذا بقيت في قوم يخبئون رزق**

---

(١) في الترغيب جـ ٥ صـ ١٤٩ وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عمر مثله وفيه أبو العطوف الجزري . وهو ضعيف كما في تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٤٢٠

سنتهم؟ وتأمل أخى المسلم كيف يكون بين أيديهم ما يكفيهم عاماً كاملاً فهم يخزنون الحبوب ، ويجعلون لأنفسهم أرصدة فى البنوك فهل أثمر ذلك عندهم الطمأنينة ؟ أم زادهم قلقاً وهماً وغماً ؟ ولا يتركنا رسول الله ﷺ فى هذه الحيرة بل يقطع الشك باليقين ويقدم لنا الإجابة : « **يخبئون رزق سنتهم .. ويضعف اليقين** » !!!!

وهذا ما نلمسه لدى من يتعلقون بالدنيا ، ويخافون أن ينقص ما لديهم من أرصدة فيزدادون حرصاً وشحاً وتعلقاً بالحياة ويكمل المشهد النبوى بذكر الآية القرآنية كى يزداد رباط المؤمن بربه . ويقوى يقينه .. فلا يخاف على رزقه إذ قد ضمنه الله له (**وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ..**)

(العنكبوت : ٦٠)

(١١) عن عبد الله بن عمرو رفعه « **صلاح أول هذه الأمة بالزهادة واليقين وهلاك آخرها بالبخل والأمل** » (١)

وقيل إن قصر الأمل حقيقة الزهد وليس كذلك ، بل هو سبب لأن من قصر أمله زهد ، ويتولد من طول الأمل : **الكسل** عن الطاعة **والتسويف** بالتوبة ، **والرغبة** في الدنيا **والنسيان للآخرة** والقسوة فى القلب ،لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر والثواب والعقاب ، وأهوال القيامة كما قال تعالى : (**فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم**) (الحديد : ١٦)

وقيل : من قصر أمله قل همه ، وتنور قلبه لأنه إذا استحضر الموت اجتهد في الطاعة وقل همه ورضى بالقليل (٢)

ثانيا : مظاهر حب الدنيا وآثاره

[١] عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « **كان جدْيٌ في غنم كثيرة ترضعه أمه فترويه ، فانفلت يوما فرضع الغنم كلها ثم لم يشبع**

---

(١) أخرجه الطبرانى وابن أبى الدنيا .

(٢) فتح البارى ص ٢٤١ جـ ١١ .

فقيل : إن مثل هذا مثل قوم يأتون من بعدكم يعطى الرجل منهم ما يكفى القبيلة أو الأمة ثم لا يشبع » [1] .

هذا مثل عجيب يبيّن فرق ما بين الالتزام والانقلاب . الالتزام بالقيم والإيمان ، ومثل الشريعة واتجاهاتها أو الانقلاب عنها إلى الحياة وملذاتها وترفها .

وأنت فى ستار الالتزام تجد في نفسك القناعة بما أوتيت ، وحب الغير والحرص على المجتمع ومراعاة حاجات الآخرين ، وقد كان الجدى فى غنم كثيرة يكتفى بأمه فترضعه وترويه ، ولكنه لما انفلت رضع الغنم كلها ثم لم يشبع ، ويعقب الحديث بالغاية من ضرب هذا المثل « هذا مثل قوم يأتون من بعدكم .. » حيث يعطى الرجل (الرجل الواحد) ما يكفى القبيلة أو الأمة ، فيكون دخله آلافاً مؤلفة أو ملايين ، وهو لا يشبع ، وكم رأينا رجالاً كانوا مفلسين يكفيهم الرغيف فيسد جوعتهم ثم صاروا أصحاب ملايين يقيم الواحد منهم فى قصر أو مسكن يتكلف تجهيزه بضعة ملايين وهم لا يشبعون ، لأنه الانفلات إلى دوامة الترف والرغبة في متاع الحياة .

[٢] عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « **قلب الشيخ شاب على حب اثنين : طول الحياة وكثرة المال »** [2] .

حينما يكبر الإنسان تتلاشى رغباته ، ويقل نهمه بكثير من مظاهر الحياة وشهواتها : فينحسر عنه عجب الشباب بشبابه - ويقل حبه للظهور وإثبات الذات - وتقل شهواته ، ولكنه يظل متوقداً قلبه بحب الحياة وكثرة المال فهو دائم التعلق بالحياة ، وراغب فيها وإنك لترى الرجل وقد بلغ منه الهرم مبلغه يكره ذكر الموت ويتمنى أن تطول به الحياة كما تراه يحب المال ويعمل على تنميته .

---

(١) قال الهيثمى : رواه البزار والطبرانى في الأوسط ورجاله وثقوا إلا أن عطاء بن السائب اختلط قبل موته .

(٢) ورد نفس الحديث فى الكلام السابق عن حب الدنيا (فقرة ٢) وهذه رواية الترمذى وقال : حسن صحيح .

(٣) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يهرم ابن آدم ويَشُبُّ منه اثنتان: الحرص على العمر ، والحرص على المال » [١]

وهذا الحديث تأييد لمعنى سابقه ، ولعلك تدرك هذه الطبيعة لدى الهرم الذى تخطى سن الشيخوخة فهو رغم تقدمه في السن حريص على العمر محب للحياة كما ذكرنا ، ولكن يبدو أن حبه للمال أقوى - أحياناً - من حبه للحياة فهو يعلم أن الموت آت لا محالة، ويتمنى - مجرد أمنية - أن تطول به الحياة ، أما المال فإنه - أحياناً - يحرص على أن يوزعه على الورثة فيعطى البعض ويحرم الآخرين ، بل نرى بعض الناس يخص الأبناء بالمال ويحرمون البنات ، حيث يعزّ عليهم أن يذهب المال إلى البنت لأنها فى بيت رجل غريب ، فالمال - وإن ورثته البنت - إلا أنه يذهب إلى هذا الغريب وأولاده . وكثيراً ما أدى الحرص على المال إلى سفك الدماء ، وقطع الأرحام ، وغير ذلك من المعاصى والكبائر .

(٤) عن عبد الله بن مسعود قال : **قال رسول الله ﷺ : مَنْ أشرب حب الدنيا التاط [٢] منها بثلاث : شقاء لا ينفد عناه ، وحرص لا يبلغ غناه ، وأمل لا يبلغ منتهاه ، فالدنيا طالبة مطلوبة ، فمن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يدركه الموت فيأخذه ، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه** » [٣]

* حب الدنيا والركون إليها والرضا بها ، يولد مأساة فإننى أتصور أن حب الدنيا والارتباط بها يعجل لصاحبه العقوبة وتكون العقوبة في هذا الحب ذاته . فهو حب يجلب المصائب والشقاء ، وتأمل هذا الجزاء العاجل : والحديث يحذر كل مؤمن أن يتعلق بالدنيا . وإليك التفصيل : -

* **شقاء لا ينفد عناه :** وهذا أول ما يصيب محب الدنيا والمتعلق بها ، فإنه يفارق السعادة والطمأنينة إلى الشقاء والعناء . وهذا ليس شقاء موقوتاً ، بل هو عناء دائم لا ينتهى وكيف يستريح وهو شغوف بالدنيا لا يكاد يحقق منها غنماً

---

(١) ورد نفس الحديث فى الكلام السابق عن حب الدنيا (فقرة) وهذه رواية الترمذى وقال حسن صحيح .

(٢) التاط : التصق

(٣) رواه الطبرانى ورجح الهيثمى ثقته .

حتى يساوره القلق مما يهدده من غرم وخسارة؟!! إنه يحاول أن يجلب لنفسه السعادة والسيادة والجاه ، وهذا الفرق بين السعادة الموهومة في الدنيا ، والسعادة الموعودة فى جنات النعيم في الآخرة .

*** إن السعادة في الدنيا بمقدار ما يتطلع إليه الفرد . أما في الآخرة فبمقدار ما هو مقدر للمؤمن عند الله تعالى .**

* وقدرة الفرد محدودة فهو يحاول ولا يستطيع أن ينال كل ما يريد وينتج من هذه المفارقة إحساس بالتعاسة والإحباط والفشل ويتولد عن ذلك العناء الدائم . وإذا حقق الإنسان لنفسه خيراً ونعيماً في الدنيا - مهما كان محدوداً فهو في خوف وحرص دائمين ، إذ يخاف أن تزول عنه النعمة أو يزول هو عنها ، ثم حرص على استمرارها ، وهو بين الأمرين فى ذهول وقلق وغفلة تورثه الخسران المبين .

* ومن هنا نصل إلى الخصلة الثانية حيث يقول النبى ص **« وحرص لا يبلغ غناه »** أى أنه حرص دائم على الدنيا وهذا الحرص لا يغنى عنه شيئاً إذا قدر للدنيا أن تزول .

* فأما الثالثة فالأمل الذي لا يبلغ منتهاه ، فهو دائماً يريد ويتطلع ، وكلما تحقق له شئ تمنى سواه فهو في لهو دائم مستمر قال تعالى فى معرض الوعيد والتهديد «**ذَرْهُم يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِم الأمل فسوفَ يعلَمُون** » (الحجر : ٣)ثم يوضح الحديث حال طالب الدنيا الذى أحبها وعاش لها وصوره وكأنه شخص مدين عليه دين للآخرة ، وكأن الآخرة تقف ببابه تطالبه بأن يؤدى ما عليه حتى يأتيه الموت ولم يؤد شيئاً من حقوق الآخرة فيهلك ويكون من الخاسرين .

أما حال العامل للآخرة الحريص عليها والمشغول بأمرها فهو كالسيد المخدوم، **تقف الدنيا على بابه خادماً مطيعاً حتى يستوفى رزقه منها .**

(٥) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ص: « لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا » (١)

إن اتخاذ الضياع والقصور يجعل الإنسان متعلقاً بالدنيا راغباً فيها ، والإيمان يعصم الإنسان . ومن ذلك ما قاله العبد المؤمن لصديقه صاحب الجنتين

---

(١) قال الترمذى : هذا حديث حسن

«ولولا إذ دَخَلْتَ جَنَّتك قُلتَ ما شَاءَ اللّهُ لا قُوةَ إلا باللّه » [1] والحديث تحذير للمؤمن أن يتخذ الضيعة ويكون همه فيها وحرصه عليها وحبه لها ، فيضعف ذلك من علاقته بالآخرة وحرصه عليها ونعيمه فيها .

(٦) أخرج أبو نعيم في الحلية عن **عائشة رضي الله عنها قالت : لبست مرة درعاً لي جديداً فجعلت أنظر إليه وأعجبت به ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : ما تنظرين ؟ إن الله ليس بناظر إليك !! قلت : وممَّ ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ قالت : فنزعتُه فتصدقت به فقال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عنك »** [2] .

هذه - أخى المسلم - أصوات الماضى تدق آذان الغافلين وتأمل هذا الموقف بجوانبه الحيّة :

* فأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لبست درعاً جديداً ، وهو ثوب خاص تتدرع به المرأة ، وقد أعجبها الثوب فجعلت تنظر إليه وتعجب به .

* ويحس أبو بكر - رضى الله عنه - بالموقف فيعيدها إلى صوابها ويردها للحقيقة : ما تنظرين ..؟ ما قيمة الثياب والزينة ..؟ أليس إلى بلىً ؟ أليست إلى انتهاء .. **إن الله ليس بناظر إليك** .. يا عائشة .

- وممَ ذلك ..؟ فهى لم تذنب ، ولم تزد أن أعجبت بثيابها ، ولكن أتدرى ماذا يعني ذلك ؟ إنه فتنة بزينة الحياة الدنيا .. وعائشة هي من هى إنها أم المؤمنين ومعروف أن حسنات الأبرار سيئات المقربين .والصديق يوجهها إلى الحقيقة ، أو بعبارة أدق : يذكرها بها :

- أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ وكيف يخرج الإنسان من زينة الدنيا ..؟ **والجواب** : تقدمه السيدة عائشة رضي الله عنها فقد تصدقت رضى الله عنها بالثوب الذى أعجبت به .. وكأنه الدرس العملي تسوقه أم المؤمنين للأجيال ، وتدعوهم إلى التبرؤ من العجب بالزينة . واقرأ معى هذا التوجيه في آيات من سورة الكهف حينما تدير حواراً بين صاحب الجنتين الظالم لنفسه حيث وجهه المؤمن بقوله : « **ولَوْلا إذْ**

---

(١) سورة الكهف : ٤٠ .

(٢) الحلية جـ ١ صـ ٣٧ .

دَخَلْتَ جنّتكَ قُلْتَ ما شاء اللهُ لا قُوةَ إلا بالله .. »

وهذا تبرؤ من القوة والحول .... إلى قوة الله وحوله ، وشبيه بذلك أن يقول (اللهم إنى أبرأ من حولى وقوتى إلى حولك وقوتك)

وبذلك يتم إسلام المؤمن ، وينتصر الإيمان في قلبه ..

(٧) (إنَّا بَلَوْنَاهم كَمَا بَلَوْنا أصْحَابَ الجنَّةِ إذْ أقْسَمُوا ليَصْرِمُنَّها مُصْبِحين * ولاَ يَسْتَثْنُون * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائفٌ من ربِّك وهُم نائمون * فَأصْبَحتْ كالصَّرِيم * فَتَنَادَوْا مُصْبِحين * أن اغْدُوا على حَرْثِكُم إن كُنتم صَارمين * فانطلقُوا وهمْ يَتَخافَتُون * أن لا يَدْخُلنَّها اليومَ عَليكم مسكينٌ * وغَدَوْا على حَرْدٍ قَادرينَ * فلمَّا رَأوْها قَالُوا إنَّا لضَالُّون * بل نحن محرُومُون * قال أوْسطُهم ألَمْ أقُلْ لكُمْ لولاَ تسبِّحُون * قالُوا سبْحَانَ ربِّنا إنَّا كُنا ظَالمين * فأقْبَلَ بعضُهُم على بعْضٍ يَتَلاومُونَ * قالُوا يَا وَيْلَنَا إنَّا كنَّا طاغين * عسَى ربُّنَا أنْ يُبْدلَنَا خَيْراً منها إنَّا إلى ربِّنَا راغبُون * كَذَلك العذَاب ولَعَذابُ الآخرةِ أكْبَرُ لَوْ كَانُوا يعلمون .)[1]

في هذا المثل يتضح كيف يكون الطغيان والعدوان : وتأمل المشهد :

* أصحاب الجنة وقت الحصاد .

* الناس يقصدون الجنة يطمعون في بعض ثمارها .. وهم مساكين في حاجة إليها * وقد روى أن صاحب الجنة كان يجعل للفقراء نصيباً من الثمار فلما مات الرجل ورثه أبناؤه واستكثروا ما كان ينفقه أبوهم على الفقراء . وطمعوا في الثمار .. فوصلوا إلى قرار .. وما أشد التعسف فى قرارات الطامعين ، وكان أول القرار قسماً قاطعاً.. « إذ أقسموا » فهو عهد قد قطعه الطامعون على أنفسهم والتزموا بالوفاء به ..وعقب القسم يأتى قرارهم « ليصرمنّها مصبحين » أى يجنون ثمارها مبكرين قبل أن يأتى أحد من المساكين وجاءت الخاتمة الصارمة للقرار « ولا يستثنون » أى لا يخرجون جزءاً من ثمارها للفقراء والمساكين . وجاء الرد الإلهى الفورى « وهم نائمون » حيث طاف عليها طائف فأصبحت خاوية . ضاعت ثمارها وصارت وكأنها قد جمعت * واستيقظ النوام .. وتأمل حال الغفلة الذى يلفّهم وتنادوا مبكرين يحث بعضهم بعضاً لعلهم يدركون مأربهم

---

(١) القلم : ١٧ - ٣٣ .

* انطلقوا .. في خفوت وهمس .. وكأنهم يتذاكرون ما بينهم من عهد .. « ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » .. وخافوا أن تعلوا أصواتهم فيستيقظ بعض الأفراد والفقراء . ويفسد عليهم حرصهم وأنانيتهم . ...

* « وغدوا على حرد قادرين .. » وهذه اللمحة تحكي الثقة في النفس والقدرة على الخير والثمار .. والطمع فيما ينتظرهم ..

* ولكن يالهول المفاجأة .. لقد ارتدوا من الثقة والغرور إلى حضيض العجز والضياع « فلما رأوها » بصورتها الجديدة الغريبة وقد تلفت ثمارها وخوت عروشها .. أحسوا بالضياع « قالوا إنا لضالون .. » أى تائهون قد أخطأنا الطريق .. ولكن .. لا . فإنهم « محرومون » ويا له من إحساس بالحرمان بعد توقد الشهوة للجنى والحصاد والامتلاك . وأكاد أرى - في سياق الآيات - يد القدرة الإلهية تزيح هؤلاء الغادرين وتردهم بقوة إلى صفوف المحتاجين الذين أرادوا حرمانهم ليذوقوا مرارة الحرمان .. ويعلموا فضل العطاء .. وليكونوا عبرة لمن اعتبر ..

وقد أحس الجمع بموطن الداء ....* فقال أوسطهم ... لولا تسبحون ... وكأنه العلاج والدواء وقد استجابوا بعد أن أفاقوا على صدمة ضياع المحصول.....وأقبلوا .... يلوم بعضهم بعضاً فلم يكن بينهم رجل رشيد ينصحهم ويوجههم إلى الخير ويردهم إلى الصواب حتى صفعتهم يد القدرة ..وموطن الداء الطغيان . فهو الطاعون الوبيل .. (**قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين**) وفي هذا آيات للمتذكرين .

(٨) (**ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون * فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**) (١)

تأمل الاستدراج وخطواته .. فلقد فتح الله لهم باب التضرع والخشوع ، وهذا

(١) الأنعام : ٤٢ - ٤٥ .

هو الباب الذى ينبغى أن يدخل منه العبد الى ربه .. وأنّى لعبد يريد أن يدخل على سيده من غير باب الذل ويتقبله ؟

وتأمل التعبير القرآنى وكأنه يأسف لهؤلاء الذين أبوا الدخول إلى ربهم من باب الذل والخشوع والضراعة « **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ..** » إنه تعبير فذ ، يعبر عن مدى الخسارة التى منى بها هؤلاء المتمردون ، ويسكن الأسى .. وتظهر غلظة القلوب فلا استجابة لرجاء « **ولكن قست قلوبهم** » وتجمدت فيها الأحاسيس الطيبة ، واشتدت فيهم النفرة والجموح ، وزين لهم الشيطان ذلك كله وخدعهم فنسوا التذكرة « وصدَّقَ عليهم إبْليسُ ظَنَّه فاتَّبعوه ، فكانت قسوة الاستدراج « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ» يا له من استدراج لهم ، ومكر بهم ، بل واستهانة بأمرهم حينما تتفتح الأبواب فيغرقون فيما يتوهمون أنه خير ، وهو باب من أبواب مضاعفة العذاب ، وتزداد الفرحة وذلك حينما تستريح النفوس إلى الخير وزيادة المال ، فتكثر الأموال ، وتعمر الديار ، ويتضاعف الأصحاب وتزيد البهجة فى النفوس (حتى إذَا فرِحُوا بما أُوتوا) وتعمقت الفرحة في نفوسهم وانشرحت لها صدورهم ..هجمت الفجيعة وجاءت البغتة .. (أخذناهم بغتة) فتشتد المصيبة ويتضاعف الألم « فإذا هم مبلسون » أى بائسون قانطون من رحمة الله تعالى [1] وتراهم منكسرين حزانى ، فهل رأيت كيف تبدل بهم الحال، وضلت بهم السبل ؟ لقد انتقلوا من فرح وسعادة إلى قنوط ويأس وانكسار وحزن .. فقطع دابرهم .. والحمد لله رب العالمين .

(**فلما نسوا ماذكروا به**) أى أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم « **فتحنا عليهم أبواب كل شئ** » أى فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم - عياذاً بالله من مكره - ولهذا قال « **حتى إذا فرحوا بما أوتوا** » أى من الأموال والأولاد والأرزاق « **أخذناهم بغتة** » أى على غفلة « **فإذا هم مبلسون** » أى آيسون من كل خير .قال الحسن البصرى : « من وسع الله عليه فلم ير أنه يُمكر به فلا رأى له ، ومن قتر عليه

---

(١) لسان العرب (مادة : بلس) قال : والإبلاس الحزن والانكسار .

فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له » ثم قرأ «فلما نسوا ما ذكروا به ، الآية » .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن عبادة بن الصامت **أن رسول الله ﷺ كان يقول :**

إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف ، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم - أو فتح عليهم - باب خيانة ..) حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) كما قال (فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) » (1)

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال :

« إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ « فلما نسوا ما ذُكّروا به .. الآيات » .

(٩) (منْ كَانَ يُريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها نوفِّ إليهم أعْمَالَهم فيها وهُمْ فيها لا يُبْخَسونَ ، أولئك الذين ليْس لهم في الآخِرةِ إلاَّ النارُ وحَبِط ما صَنَعُوا فيهَا وباطلٌ ما كانُوا يعْمَلُون) (2)

إن للجهد في هذه الأرض ثمرته سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة . فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا ويتمتع بها كما يريد- في أجل محدود - ولكن ليس له في الآخرة إلا النار لأنه لم يقدم للآخرة شيئاً ولم يحسب لها حساباً فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا ، ولكنه باطل فى الآخرة لا يقام له فيها وزن ، وهو حابط (3) وهى صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم في الدنيا وهو مؤد إلى الهلاك ونحن نشهد في هذه الأرض أفراداً اليوم وشعوباً وأمماً تعمل لهذه الدنيا ، وتنال جزاءها فيها ولدنياها زينة ، ولدنياها انتفاخ !! فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل : لماذا ؟ لأن هذه هي سنة الله في هذه الأرض **(من كان يريدُ الحياةَ الدنيا وزينتَها نُوفِّ إليهم أعمالَهمْ فيها وهُمْ فيها لا يُبْخسون)** ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسينا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه ونفوسهم تتطلع إلى الآخرة وتراقب الله في الكسب والمتاع فينالون زينة الحياة الدنيا لا يبخسون فيها شيئاً، وينالون كذلك متاع الحياة الأخرى .

---

(١) ابْن كثير جـ٢ صـ١٤٣ وقال رواه أحمد وغيره .

(٢) هود : ١٥ ، ١٦ .

(٣) من حبطت الناقة إذا انتفخ بطنها من المرض فصارت عديمة المنفعة .

إن العمل للحياة الأخرى لا يقف فى سبيل العمل للحياة الدنيا . بل إنه هوهو مع الاتجاه الى الله فيه ، ومراقبة الله في العمل لا تقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره بل تزيد وتبارك الجهد والثمر وتجعل الكسب طيباً والمتاع به طيباً . ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة إلا أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام ، وهذه مردية لا فى الآخرة فحسب بل كذلك في الدنيا ولو بعد حين ، وهى ظاهرة في حياة الأمم وفي حياة الأفراد وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون [1]

قال العوفي عن ابن عباس فى هذه الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً ، يقول : من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى : أوفّيه الذى التمس في الدنيا من المثوبة وحبط عمله الذى كان يعمله لالتماس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين .

قال قتادة : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء [2]

* * *

(١) فى ظلال القرآن جـ ٤ صـ١٨٦٢ .

(٢) ابن كثير جـ٢ صـ ٤٧١ .

ضرورات الحياة

(١) عن أبي حسنة : مسلم بن أكيس مولى عبد الله بن عامر عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال : ذكر من دخل عليه فوجده يبكي فقال ما يبكيك يا أبا عبيدة ؟ فقال نبكي أن رسول الله ﷺ ذكر يوما « **لما يفتح الله على المسلمين ويفيئ عليهم حتى ذكر الشأم فقال إن ينسأ في أجلك يا أبا عبيدة فحسبك من الخدم ثلاثة : خادم يخدمك وخادم يسافر معك وخادم يخدم أهلك ويرد عليهم ، وحسبك من الدواب ثلاثة : دابة لرحلك ، ودابة لثقلك ودابة لغلامك .** ثم ها أنذا أنظر إلى بيتي قد امتلأ رقيقاً ، وأنظر إلى مربضي قد امتلأ دواب فكيف ألقى رسول الله ﷺ بعد هذا ؟ وقد أوصانا رسول الله ﷺ أن أحبكم إليّ وأقربكم مني من لقيني على مثل الحال الذى فارقني عليها »

يكفي من الخدم ثلاثة ومن الدواب ثلاثة : أما الخدم فواحد للخدمة ، وآخر للسفر وثالث لخدمة الأهل .

والدواب واحدة للرحل والثانية لحمل المتاع والأثقال والثالثة للغلام ،، ولكن الدنيا تقبل ويزداد ما عند أبي عبيدة ، وقد أحسّ بجسامة المسئولية وعنف التبعة فتلك الدواب تزداد والثروة تتضاعف وتتضاعف معها المسافة بينه وبين حبيبه محمد ﷺ فقد أوصاهم رسول الله ﷺ أن أحبهم وأقربهم له ﷺ من لقيه على مثل الحال الذى كان معه صلى الله عليه وسلم عليها .

وكأن هذا جانب من جوانب الوفاء بالعهد ، ورعاية حق الصحبة ونأخذ من هذا الحديث أن الإنسان يستعين من متاع الحياة بما يحقق له الاستقرار .. من خدم وسيارة .. إن كان يقدر على ذلك دون أن يجاوز الحد .. حتى لا يثقل كاهله .

(٢) قال أبو مسعود البدري : **كان رسول الله ﷺ يأمر بالصدقة فينطلق أحدنا فيحامل فيجئ بالمدّ وإن لبعضهم اليوم مائة ألف .. (قال شقيق) فرأيت أنه يعرّض بنفسه »**

(٣) عن الحسن قال : لما احتضر سلمان بكى وقال : **إن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً فتركنا ما عهد إلينا أن يكون بلغة [١] أحدنا من الدنيا كزاد الراكب** قال : ثم نظرنا فيما ترك فإذا قيمة ما ترك بضعة وعشرون درهما أو بضعة وثلاثون درهماً »

(٤) عن بريدة الأسلمى : **أن رسول الله ﷺ قال : « ليكف أحدكم من الدنيا خادم ومركب »** [٢]

*** حينما كان النبي ﷺ يأمر بالصدقة كان الصحابة يسارعون في الخيرات ، ويتسابقون إلى الطاعة .. حتى الفقير وهو الذي يستحق الصدقة في ميزان الناس ، ولكن عظمة الصحبة لرسول الله ﷺ فرضت عليهم الخروج على المعتاد ، فإذا بالفقير ينطلق استجابة لأمر رسول الله ﷺ فيحامل .. أى يعمل حمالاً يحمل المتاع وينقل الحاجات بأجرة ضئيلة ، إذ يجئ الواحد (بالمد) وهومقدار من الثمار .. من تمر أو غلال فيتصدق به .

ولكن الدنيا أقبلت ، وأينعت زهرتها حتى صار لأحدهم مائة ألف .. ولقد كان حرص الأصحاب رضوان الله عليهم ورحمته على أن يظلوا قريبين من حالهم مع رسول الله ﷺ ، فهم في هم دائم لما زاد ، وها هو ذا سلمان رضي الله عنه يبكى إذ قد زاد ماله عن الحد الذى رسمه رسول ﷺ « بلغة أحدنا من الدنيا **كزاد الراكب** [٣] .. » فماذا ترك سلمان رضى الله عنه ؟ لقد ترك بضعة وثلاثين درهماً على أكثر تقدير. رحمك الله يا سلمان ورضى عنك وعن أصحابك يامن فهموا عن رسول الله ﷺ أنه يكفى من الدنيا مجرد بلاغ ، ما يبلغه المقيل كما ذكر رسول الله ﷺ « خادم ... ومركب » ثم بعد ذلك الحساب . لك أو عليك وقد يتخيل البعض أن الخادم والمركب معناه أن يعيش الإنسان في قصر، ويكون لديه سيارة وما يستتبع ذلك من وسائل الترف ولكن الخادم . عامل يساعد ، والمركب ما يساعد على العمل ، فهما ليسا وسيلة للاسترخاء والراحة أو الكسل

---

(١) بلغة : أى ما يبلغه ..

(٢) رواها الإمام أحمد فى مسنده ..

(٣) وزاد الراكب يعنى أقل الضرورات .

وقد رأينا في الحديث الأول من هذه المجموعة كيف انطلق الصحابي يحامل ليتصدق ..وفي هذا تنبيه للغافلين كي لا يسدروا في الغنى والترف نسأل الله الهداية .

(٥) أخرج ابن أبي الدنيا والدينوري عن سفيان بن عيينة قال : **كتب سعد ابن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وهو على الكوفة يستأذنه في بناء بيت يسكنه فوقع في كتابه : ابْنِ ما يسترك من الشمس ويُكنُّك من الغيث فإن الدنيا دار بلغة .. »** [1]

هذا صوت الأسوة .. والتعلم يأتينا من الماضي متمثلاً في عامل يستأذن الأمير في بناء يستره ، والبناء الشاهق والمغالاة فيه علامة من علامات القيامة، وهو أمارة انهيار عمارة الكون ، ولهذا فلا ينبغي أن يتجاوز المؤمن حد الضرورة، وهذا توجيه عمر رضي الله عنه : « ابْنِ ما يسترك من الشمس ، ويكنك من الغيث ، فإن الدنيا دار بلغة »

ويحضرني قول الله تعالى في سورة الرحمن : (**والسماءَ رفعها ووضعَ الميزانَ ألاَّ تطغَوا في الميزانِ * وأقيمُوا الوزنَ بالقسط ولا تُخسِروا الميزانَ**)

(الرحمن : ٧ - ٩)

ولقد تأملت المقصود[2] بالميزان في مواضعها من الآيات فظهر لي والله أعلم - أن الميزان في الموضعين الأول والثاني يعني القانون الذي يحكم الحياة (كالجاذبية وغيرها من القوانين التي تزن الحياة وتضمن استمرارها) كما قال تعالى « **وأوحَى في كُلِّ سماءٍ أمرهَا** » (فصلت : ١٢) فالمقصود بالأمر هنا هو نفس المقصود بالميزان والله أعلم .. فهو القانون إن صح هذا التقدير ، ولذا جاء قوله تعالى « ألا تطغوا في الميزان » فالنهي هنا عن التجاوز في العلوم والاختراعات بصورة تدمر ميزان الكون كما نسمع عن تأثير الغازات في الغلاف المحيط بالأرض والمعروف بطبقة الأوزون والتي تمنع وصول الأشعة تحت الحمراء إلى الأرض .

---

(١) نقلاً عن منتخب الكنز جـ٤ صـ٤٠٦ .

(٢) سبق أن تناولنا هذه القضية ولا حرج في تكرار الفكرة .. إذ المقصود الإقناع .

وهذا الاستطراد دعانا إليه ما لمسناه من حرص الإسلام في كل نصوصه وتوجيهاته على التوجيه للاعتدال في كل شئ والحرص من الإسراف والتبذير والتغالي .. ولكن الإنسان - وهذا دأبه - ما زال ينطلق إلى الآفاق يجرب ويبحث ويبتكر ويعرف ، ويأتى التحذير القرآنى منذ مئات السنين كما قال تعالى **(ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسبتْ أيدى الناسِ ليذيقَهم بعضَ الذى عملُوا..)**

وقد فهم المسلمون ذلك وفقهوه وتصرفوا على أساسه وكان توجيه عمر إلى ولاته ليكونوا قدوة .. ولقد فهم المسلمون خطر الإسراف في البنيان إذ نبههم رسول الله ﷺ أنه من علامات الساعة ودلالة من دلالات انهيار عمارة الكون .

ولعلك رأيت أن هذا الفهم استوى فيه المسلمون من القمة حيث سدة الحكم إلى القاعدة حيث الجماهير العريضة الواعية .

(٦) عن عثمان بن عفان أن النبى ﷺ **قال : « ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجلف الخبز والماء »** [١]

هذا هو الحد الأدنى للضروريات ، وبها تستقيم حياة الإنسان البيت ، ثم الثوب ، ثم الطعام والشراب ، وهذه دعائم الحياة ، وهى حق الإنسان ، وما فوق ذلك فهو الحساب .. وهذه صيحة تحذير لمن تفتحت شهيتهم للامتلاك وشرهت نفوسهم للمال والمتاع ..

(٧) أخرج أحمد عن عبد الله بن زرير قال : دخلت على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يوم الأضحى فقرب إلينا خزيرة فقلنا : أصلحك الله لو أطعمتنا هذا البط - يعنى الأوز - فإن الله قد أكثر الخير ، قال : يا ابن زرير إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يحل للخليفة [٢] من مال الله إلا قصعتان ، قصعة يأكلها هو وأهله . وقصعة يضعها بين يدى الناس ، كذا في البداية (جـ٨ صـ٣)

---

(١) قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح وقوله جلف الخبز يعنى ليس معه إدام (غموس)أو هو العيش الخشن

(٢) استخدام لفظ الخليفة وإطلاقه على الأمراء استخدام متأخر عن عهد الرسالة ولعل هذا من أمارات ضعف الحديث. والله أعلم

إن الخير كثير ، ولكن الولاية مسئولية فالوالي قيّم على أحوال المسلمين وأموالهم ، فلا ينبغى أن يضيع أمورهم أو يتلف أموالهم فلا يحل للوالي إلا ما يضعه بين يدى أهله ، يطعمون منه قدر حاجتهم ، وما يضعه بين يدى أضيافه فهو محاسب أمام الله تعالي عما استرعاه الله حفظ أم ضيّع ..

(٨) عن يحيى بن جعدة قال : **عاد خباباً ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : أبشر يا أبا عبد الله : تَردُ على محمد ﷺ فقال : فكيف بهذا وأشار إلى أعلى البيت وأسفله ، وقد قال رسول الله ﷺ : إنما يكفى أحدكم من الدنيا زاد الراكب »**[١] إن الورود على رسول الله ﷺ شرطه أن يكون على حال من الزهد في الدنيا وإقبال على الآخرة والإقبال على الآخرة ليس مجرد ادعاء ، والزهد في الدنيا يجب أن يتجاوز مرحلة الأماني وقد قال ﷺ **«إنما يكفي .. زاد الراكب »** فما زاد الراكب؟

إن المسافر لا يحمل معه الأسرَّة والمتاع ، ولا يحمل معه خزانة الملابس كما لا يصطحب معه المواقد والأجهزة لإعداد الطعام ، ولا الموائد التى تفرش ليمتد عليها الطعام ، ولكنه في العادة يحمل بعض الوجبات الجافة ، وإناء يستقى فيه الماء ، والقليل من الملابس .وهذا هو شأن الجاد في طلب الآخرة ، والمسافر إليها .

(٩) عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصبح معافى فى بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا ، يا ابن آدم جفينة يكفيك منها ما سد جوعتك ، ووارى عورتك ، وإن كان بيت يواريك فذاك ، وإن كانت دابة تركبها فبخ[٢] فلق الخبز ، وماء الجر ، وما فوق الإزار فحساب عليك »

(١٠) عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع ، ابن آدم إذا أصبحت آمناً فى سربك معافى في جسدك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء »

---

(١) رواه أبو يعلى والطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن جعدة وهو ثقة قاله الهيثمي

(٢) كلمة تقال تعبيراً عن السرور.

(١١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إليك انتهت الأماني يا صاحب العافية »[١]

تفكرت كثيراً في مثل هذه الأحاديث المباركات ، ونحن نعب من ترف الحياة وننزح من مواردها وننهل من خيراتها ، ونسخر القانون - فوق ما هو مسخر - لخدمتنا فإذا بالطائرات ترتفع في الأجواء والسيارات تشق بنا الطرقات ، ومبردات الماء ومكيفات الهواء تستثير فينا أعذب الأحلام ، وأجهزة الإرسال تملأ حياتنا صخباً وضجيجاً يستهوى فينا المشاعر ويستحث الرغبات .

تأملت كيف أن الكفاف في العيش مطلوب ، فالحياة لا تتزن إلا بالحرص على مقوماتها ، كما أن حياة المؤمن في الآخرة تتزن إذ يسهل عليه الحساب . وأنت ترى الحاجات تتحدد :

* المعافاة في البدن ، وذلك بخلوه من الأمراض والأوجاع .
* الإحساس بالأمن والطمأنينة في المجتمع والأسرة (آمناً في سربه)
* القدرة على قوت يوم .من طعام وشراب فتلكم هى الدنيا .. قد اجتمعت له .وتأمل نداء الرسول ﷺ : يا ابن آدم : جفينة [٢]يكفيك منهما سد جوعتك ، ووارى عورتك ..إلخ وفيه تصوير للدنيا بأنها مثل الوعاء الصغير فيه طعام ، فهى لك ولغيرك أما الترف .. وهو ما فوق ذلك مباشرة - ابتداء من فلق الخبز [٣] وماء الجرّ [٤] وما فوق الإزار فهو بداية الحساب .

(١٢) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيلٍ وكان ابن عمر يقول « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك » [٥]

---

(١) رواها - ثلاثتها - الطبراني وفى إسنادها كلام - راجع مجمع الزوائد .

(٢) جفينة : تصغير جفنة وهى ما يوضع فيها الطعام .

(٣) فلق الخبز : لعله .تشقيقه والعناية به .

(٤) أى الماء المبرد في الأوانى الفخارية كالجر ، والزير وما أشبهها .

(٥) راجع فتح البارى ص ٢٣٧ وما بعدها .

قال ابن بطال : لما كان الغريب قليل الانبساط إلى الناس بل هو مستوحش منهم إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه مستأنس به فهو ذليل في نفسه خائف ، وكذلك عابر السبيل لا ينفذ في سفره إلا بقوته عليه وتخفيفه من الأثقال غير مثبت بما يمنعه من قطع سفره معه زاده وراحلته يبلغانه إلى بغيته من قصده شبّهه بهما . وفي ذلك إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البُلغة منها والكفاف ، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل .

وقال غيره : هذا الحديث أصل في الحث على الفراغ عن الدنيا والزهد فيها والاحتقار لها والقناعة فيها البلغة .

وقال النووي : معنى الحديث لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه .

وقال غيره : عابر السبيل هو المار على الطريق طالب وطنه ، فالمرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده فشأنه أن يبادر بفعل ما أرسل فيه ثم يعود إلى وطنه ولا يتعلق بشئ غير ما هو فيه ، وقيل المراد أن ينزل المؤمن نفسه فى الدنيا منزلة الغريب فلا يعلق قلبه بشئ من بلد الغربة ، بل قلبه متعلق بوطنه الذى يرجع إليه ويجعل إقامته في الدنيا ليقضى حاجته وجهازه للرجوع إلى وطنه وهذا شأن الغريب : أو يكون كالمسافر لا يستقر في مكان بعينه بل هو دائم السير الي بلد الإقامة .

وفي عطف عابر السبيل على الغريب- قال الكرماني - بأنه من عطف العام على الخاص وفيه نوع من الترقي لأن تعلقاته أقل من تعلقات الغريب المقيم .

(١٣) عن ابن عمر قال : أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال : « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعدّ نفسك في أهل القبور** »(١)

يوضح هذا الحديث طريق الاستعداد للآخرة ، ومن المعروف أن حب الدنيا وما فيها مغروس في طبيعة الإنسان فكيف يتغلب على هذه الطبيعة ؟

والجواب : إن الإنسان عليه أن يعيش الحقائق التالية ، ويعود نفسه عليها

---

(١) رواه الترمذى وله طرق تشهد له .

وهى حقائق قد يغشيها جانب التعلق بالدنيا .. وعلى الإنسان الذكى أن يذكر :

(١) أنه غريب في هذه الدنيا .. وشأن الغريب أن يرحل فالغربة ليست دار مقام وقرار .

(٢) أو يذكر أنه عابر سبيل .. مسافر ، وشأن المسافر أن يصل إلى غايته

(٣) أن يذكر دائماً أنه من أهل القبور ، فهو ساكنها ، وهى بيته يمكن أن يدخله في أى لحظة على غير موعد فكم من صديق أعد لاجتماع مع الأحباب فإذا بالموت يلحقه ويجعله من سكان القبور ، وكم من صحيح فاجأه الموت فرحل إلى حفرته .. وغير ذلك كثير ومن كانت هذه أحواله هانت عليه الدنيا وعمل فيها عمل الأجير يبنى ويعمر لا ليملك أو يحكم وإنما ليأخذ فالمؤمن كالأجير ينتظر أجره من الله تعالى .....

(١٤) عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : « من قضى نهمته في الدنيا حيل بينه وبين شهوته في الآخرة [١] ومن مد عينه إلى زينة المترفين كان مهينا في ملكوت السموات ومن صبر على القوت الشديد صبراً جميلا[٢] أسكنه الله من الفردوس حيث شاء » [٣]

إن القرآن نعى على الكفار أنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ، فهم ينطلقون بشهواتهم ويهيمون على وجوههم .

وينبغي على المؤمن أن يكون عاقلا فيتصرف في هدوء ويأخذ من الدنيا على قدر ما أحله الله تعالى، فإذا انطلق كالأعمى يقضى نهمته من كل شئ وينهل من كل منبع كان جديراً بأن يسقط في الحرام بل وربما كان من الذين حيل بينهم

---

(١) قال تعالى " أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا .." وقال وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعل بأشياعهم من قبل »

(٢) قوله من مد عينيه إلى زينة المترفين فيه بعض معانى قوله تعالى " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه " وقوله عليه السلام : صبراً جميلاً :الصبر الجميل هو الذى لا يرتبط بالضيق والشكوى وإنما يصاحبه الرضا والتسليم ومظهره قول المؤمن عند المصيبة " إنا لله وإنا إليه راجعون،

(٣) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه إسماعيل بن عمرو الجبلى وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور وبقية رجاله رجال الصحيح.

وبين ما يشتهون .أما من يشغل نفسه وباله بزينة الحياة الدنيا فإنه يعرض نفسه للمهانة لأنه عظم ما حقره الله تعالى.وأما الذين يصبرون على شدة الدنيا صبراً جميلا فإن مكانه في الفردوس الأعلى حيث شاء الله تعالى(أو ربما حيث رغب العبد) .

(١٥) (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُوا في البلاد متاعٌ قليلٌ ثم مأواهم جهنَّمُ وبئسَ المِهَاد) (١) .

* الذين كفروا يتقلبون في الحياة الدنيا ، يأخذون منها ويحبونها ويتمتعون فيها .

* قد يغتر المؤمن بما يتنعّم به الكافر ، وقد رأينا كيف انبهر كثيرون حين رأوا قارون في زينته .

* يتوجه النهى الى النبى ﷺ « لا يغرنك ... » والنهى تحذير للأمة وتطمينٌ للنبي ﷺ .

* إن تقلب الكفار عام في جميع البلاد فالكافر مُنعَّمٌ ، وقد تكون الخزائن منتفخة ومنفتحة له ، وقد يكون رزقه محدوداً ولكنه في كل الأحوال منعّم ، فهو يقضى وطره ، ويمارس حياته العادية ويسعد بالأولاد والجيران ، وهذا نعيمه .

* إنه متاع قليل بكل المقاييس .

وتأمل التهديد الفظيع المفزع .. ثم مأواهم جهنم .. فهى دارهم لا يجدون مأوى سواها ويتم التهديد بهذا التعقيب المرير « وبئس المهاد » والمهاد الفراش فهى مأواهم وهى فراشهم ، نعوذ بالله من ذلك .

(١٦) (ولا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلىَ ما متَّعْنَا به أزْوَاجاً منْهُم زهرةَ الحياةِ الدُّنيا لنَفْتِنَهمُ فيه ورِزْقُ ربِّكَ خيرٌ وأبْقَى) (٢)

* نفس النهى تقريبا : « **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ..** »

* رأينا النهى السابق وهو يركز على نوازع النفس وتطلعاتها إذ تغتر بما يتقلب فيه الكفار .

---

(١) آل عمران : ١٩٦ - ١٩٧ .
(٢) طه : ١٣١ .

* ونقف هنا - أمام هذا النهى الذى يركز على حركات الحواس ويسيطر على امتدادها ، ويحاول أن يحده بحدود الإيمان .

* فإمعان النظر وإصغاء السمع .. كلها حركات تعبر عن ميول قلبى ، وتعلق إرادى .

* ولما تحدثت الآية عن .. مد العين وإمعان النظر ونهت عنه تحدثت عن الدنيا وصورتها زهرة ، ألوانها جميلة ورائحتها عطرة ، ولكنها عمرها قصير ، ونفعها قليل - إذ لا يعدو التأثير العابر .

* وترتيباً على تصوير الحياة بالزهرة أشارت إلى الفتنة إذ يمكن أن يلهو الإنسان بألوان الزهور وأعطارها فيفتنه حب الزهور عن طلب الثمار .

* ثم يأتى التذييل الكريم « ورزق ربك خير وأبقى » فيبدأ بالرزق وما فيه من معانى العطاء والرخاء والثراء ، ويمر بجوانب الخيرية فيه وما تحمله من معانى السعادة والاستقرار والطمأنينة ثم تنتهى إلى البقاء والخلود حقاً .. فهو خير وأبقى .

(١٧)« يا أيُّهَا الذين آمنُوا : إنّ منْ أزْواجكُم وَأولاَدكُمْ عَدُواً لكُمْ فاحْذَروهم ، وإنْ تعفُوا وتصْفَحُوا وتغْفرُوا فإنَّ اللهَ غَفُور رحيمٌ ، إنّما أمْوالُكم وَأولادُكُمْ فتنَةٌ واللهُ عندَه أجْرٌ عظيمٌ فاتقوا اللهَ ما اسْتَطعتُم واسْمَعُوا وأطيعُوا وأنْفِقُوا خَيراً لأنْفُسكُم ومنْ يُوقَ شحَّ نفْسه فأولئك هُم المفْلحُون » [١] .

قوله تعالى (فاحْذروهم) قال ابن زيد : يعنى على دينكم ، وقال مجاهد : يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه [٢] إلا أن يطيعه . وقوله تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) يقول تعالى إنما الأموال والأولاد فتنة أى اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه وكان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين رضى الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال « صدق الله ورسوله : إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى

---

(١) التغابن : ١٤ - ١٦ .

(٢) أى للأزواج والأولاد والأموال .

ورفعتهما .. »

عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « الولد ثمرة القلوب ، وإنهم مجبنةٌ مبخلة محزنة »

وأخرج الطبراني بسنده عن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال « ليس عدوك الذى إن قتلته كان فوزا لك ، وإن قتلك دخلت الجنة ، ولكن الذى لعله عدو لك ولدك الذى خرج من صلبك ، ثم أعدى عدو لك : مالك الذى ملكت يمينك » (١)

* * *

(١) ابن كثير صـ ٣٩٩ جـ ٤ .

الزهد فى الدنيا .. علامة حب الله ..

مفهوم الزهد :

الزهد فى مفهومه ليس انصرافاً عن الحياة الدنيا ، ومخاصمة لها فلقد أمر المولى سبحانه وتعالى عباده بالعمل فقال جل ذكره « وقُلِ اعْمَلُوا فسيَرى اللَّهُ عَمَلَكُم ورسوله والمؤْمِنُون .. » (التوبة : ١٠٥) وبعد الدعوة الوضيئة إلى الاجتماع لصلاة الجمعة تأتى الدعوة إلى السعى والعمل الإيجابيين يقول سبحانه (.... فإذَا قُضِيت الصلاةُ فانْتَشِرُوا فى الأرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضلِ الله واذكُروا اللهَ كَثيراً لعلَّكم تُفْلحُونِ) (الجمعة : ١٠) .

وإذا قسمنا المراحل العلمية تقسيماً افتراضياً وجدناها :

* العمل ... * الأجر على العمل . * الإنفاق على ضرورات الحياة .

* ثم تجاوز الضرورات إلى الترف . * وأخيراً يأتى الإسراف والتبذير وهما تجاوز الحد إلى السفه .

هذه هى مراحل الإنفاق .. أو قل هى مراحل الحياة العملية ومن يمعن النظر فيها يجد أنه لا يمكن تطبيق القول الزهد فى المراحل الثلاثة الأولى :

فالعمل ضرورة لا زهد فيها ولا تستقيم الحياة إلا بها ، وقد حث رسول الله ﷺ على العمل اليدوى فقال ﷺ « ما أكل أحدٌ طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده ، وكان نبى الله داود يأكل من عمل يده » وداود عليه السلام ملك نبى كان يمكن أن يأكل وهو مستريح النفس والبدن .. ولديه الإمكانيات لذلك ..

كما أن الأجر على العمل لازهد فيه فالعامل لابد أن ينال أجره على عمله الذى أداه وإلا كان سبباً فى فساد الحياة والعلاقات الاجتماعية . والإنفاق على ضرورات الحياة أمر لابد منه كما قال سبحانه : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) (البقرة : ١٩٥)

وقال جل ذكره : « ولا تقتلوا أنفسكم » (النساء : ٢٩)

ويأتى بعد ذلك تجاوز الضرورات إلى الترف .. وهنا يكون الزهد مأموراً به

فالزاهد الذى يزهد فى العمل مخالف لقواعد العقل والنقل . ومضاد لأحكام الشريعة فهو أقرب إلى العصيان وكذا الأجر للإنفاق على ضرورات الحياة ، وقد دلتنا الأحاديث الشريفة على ذلك - حيث كان ﷺ يأمر أصحابه بالصدقة فيحامل أحدهم ويجيء بالمد فيتصدق به كما كان يدعو إلى العمل فيعف الإنسان نفسه وينفق على أهله ويتصدق .

والزهد فى الترف هو من شيمة الصالحين الذين يعفون عن العب من متاع الحياة الدنيا مع قدرتهم وإذا كان الزهد فى الترف من سمات الصالحين فإن الإسراف علامة الهلاك والبعد عن الله تعالى كما قال سبحانه « إنه لا يحب المسرفين » والآن إلى النصوص نستوحى بعض معانيها :

(١) عن عمر رضى الله عنه قال : نظر رسول الله ﷺ إلى مصعب بن عمير رضى الله عنه مقبلاً عليه إهاب كبش قد تنطّق [١] به ، فقال النبى ﷺ انظروا إلى هذا الذى نور الله قلبه !! لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، ولقد رأيت عليه حلة شراها - أو شريت - بمائتى درهم فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون » [٢] مصعب بن عمير رجل قد نور الله قلبه فلم يعبأ بالحياة والترف وانصرف عن رعاية الأبوين اللذين كانا يغذوانه بأطيب الطعام والشراب إلى رعاية الله تعالى فلبس إهاب كبش غير عابيء بزينة الحياة الدنيا ، فلقد دعاه حب الله وحب رسوله ﷺ إلى أن يترك حلة قيمتها مائتا درهم ، ويرضى بأقل ما يستر العورة رضى الله عنه .

(٢) عن أبى الدرداء رضى الله عنه : والذى نفس أبى الدرداء بيده ما أحب أن لى اليوم حانوتاً على باب المسجد لا يخطئنى فيه صلاة أربح كل يوم أربعين ديناراً ، وأتصدق بها كلها فى سبيل الله ، قيل له : يا أبا الدرداء وما تكره من ذلك ؟ قال : شدة الحساب »

ومن طريق آخر « ما يسرنى أن أقوم على الدرب من باب المسجد فأبيع وأشترى فأصيب كل يوم ثلاث مائة دينار أشهد الصلاة كلها فى المسجد : ما أقول : إن الله عز وجل لم يحل البيع ويحرم الربا ، ولكن أحب أن أكون من الذين

---

(١) تنطق به : أى جعله نطاقاً يلف به جسمه (ووسطه خصوصاً) .

(٢) أخرجه الطبرانى والبيهقى والحاكم وأبو نعيم .

لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » [١]

وهذا نموذج آخر من نماذج الحذر من غرور الدنيا . نموذج يتعالى على متاع الحياة الدنيا . رغم كل ضوابط الأمان ، وتأمل مقالة أبى الدرداء :

* ما يحب أن يكون له حانوت على باب المسجد .
* ألا تخطئه فيه صلاة .. فهو يحضر الصلاة الجامعة .
* أن يربح أربعين ديناراً (وفى رواية ثلاثمائة دينار)
* وأن يتصدق بها كلها فى سبيل الله .

وقد سئل أبو الدرداء : وما تكره من ذلك ؟ وتأتى الإجابة .. إجابة معلم :

* ما أقول إن الله عز وجل لم يحل البيع ويحرم الربا .
* ولكنى أخاف شدة الحساب .
* ويحب أن يكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

(٣) عن محمد بن كعب أن ناساً نزلوا على أبى الدرداء رضى الله عنه ليلة قرة فأرسل إليهم بطعام سخن ولم يرسل بلحف [٢] فقال بعضهم : لقد أرسل إلينا بالطعام فما هنأنا مع القر [٣] لا أنتهى أو أبين له ، قال الآخر : دعه ، فأبى فجاء حتى وقف على الباب رآه جالساً وامرأته ليس عليها من الثياب إلا ما لا يذكر ، فرجع الرجل وقال : ما أراك بت إلا بنحو ما بتنا به ، قال : إن لنا داراً ننتقل إليها قدمنا فرشنا ولحفنا إليها ولو ألفيت [٤] عندنا منه شيئا لأرسلنا إليك به ، وإن بين أيدينا عقبة كئوداً [٥] المخفف فيها خير من المثقل ، أفهمت ما أقول لك ؟ » [٦]

إننا أمام مثل حى للإرادة والعزيمة القوية ، إرادة تقهر الألم وتنتصر على الظروف ، إنه الإنسان الذى ينظر إلى آفاق المستقبل وما ينتظره من عطاء إلهى سخى .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية وابن عساكر .

(٢) جمع لحاف وهو الغطاء سخن بفتح السين وكسر الخاء المعجمة - صيغة مبالغة من ساخن .

(٣) القر (ضد الحر) أى البرد الشديد .

(٤) ألفيت : وجدت .

(٥) شاقة : والمخفف الذى يخفف ظهره من الأحمال والأثقال .

(٦) أخرجه أحمد - وذكره ابن الجوزى فى صفة الصفوة .

إن أصداء النبوة لا زالت تتردد بين مسامع أبى الدرداء وقلبه فتتجاوب لها نفسه ، ويذكر قول النبى ﷺ « أحكم السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كئود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير »

أفهمت ما أقول لك ؟ .. نعم يا أبا الدرداء فهمنا ، ونسأل الله أن يرضى عنك ، ويعيننا على الاقتداء بأمثالك ، وأن يجنبنا الفتن ومضلاتها ..

(٤) عن ساعدة بن سعد بن حذيفة أن حذيفة رضى الله عنه كان يقول : ما من يوم أقر [١] لعينى ولا أحب لنفسى من يوم آتى أهلى فلا أجد عندهم طعاماً ويقولون ما نقدر على قليل ولا كثير .. وذلك سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أشد حمية [٢] للمؤمن من الدنيا من المريض أهله من الطعام ، والله تعالى أشد تعاهدا للمؤمنين بالبلاء من الوالد لولده بالخير » [٣]

إن الدنيا ليست بدار قرار ولا دار جزاء ، وإن إقبالها على الإنسان أو إدبارها عنه ليس دليلاً على كرامة أو مهانة ، والمؤمن فى رعاية الله كالمريض فى رعاية أهله فإذا كان الماء يضر المريض حجزه أهله عنه رغم حبهم الشديد لمريضهم بل إن هذا الموقف هو وحده دليل الحب العميق وكيف يعطونه الماء وقد حذرهم الطبيب ؟ ولله المثل الأعلى .. إن المؤمن بين يدى الله الرحيم الغفور يتعهده ويربيه ويعده لدار البقاء ، ولهذا فإنه يساعده على الإقلال من تعلقاته بدار الفناء وتأمل أخى المسلم ـ حال المؤمن من ربه :

* فهو كالمريض بين أهله الذين يحبونه .
* وهو كالولد الذى يتعاهده أبوه بالخير .

وربك الغفور ذو الرحمة ، وفى هذا تعليم للمؤمن حتى لا يحزن على ما يفوته من الدنيا فما هى إلا دار بلاغ ..

(٥) وعن رافع بن خديج قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أحب الله عز وجل

---

(١) العين إذا قرت كان استقرارها دليل الهدوء والرضا ، أما إذا قلقت وزاغت دل ذلك على الاضطراب واستخدام لفظ (قر) للدلالة على السعادة ... (قرة أعين) .

(٢) حمية : حماية .

(٣) أخرجه أبو نعيم والطبرانى .

عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء » [١]

إن الله تعالى رحيم بعباده عليم بما يصلحهم ولقد أوشك أن يكون نصيب الكافرين فى الدنيا بيوتاً لها معارج وسقف من فضة وأبواب من ذهب [٢] وذلك لهوان الدنيا على الله تعالى من جهة ، ومن جهة أخرى لهوان الكافر على ربه قال ﷺ « لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء » وهذا يفسر لنا بعض معالم هذا المشهد الخطير الذى ساقته سورة الأعراف إذ يقول الله تعالى : (ونادَى أصْحَابُ النَّار أصْحَابَ الجنَّة أنْ أفيضُوا علَيْنَا مِنَ الماء أو مما رزَقكُم اللّه قالُوا إن اللهَ حرمهما على الكافرين ..)

(الأعراف : ٥٠)

ففى الدنيا نجد المؤمن يعانى فهو فى ضائقة تأخذ بخناقه ، وتعكر صفو حياته فلماذا يتأخر المدد الإلهى عنه ؟ أين خزائن رحمة الله ؟ هل أغلقت دونه . ؟ كلا .. ولكنها الحماية الربانية للمؤمن فالله يحميه من الدنيا وآفاتها كما يحمى الواحد منا مريضه من الماء وهو يحبه وذلك خوفاً عليه لأن الماء قد يضاعف الأسقام فيه ويزيد من علته ..

وفى مشهد سورة الأعراف نرى قيمة الدنيا فى تسول الكافر وتطلعه لشربة ماء .. وأذكر أن أخاً فاضلاً ـ رحمه الله ـ كان يعانى من بعض الأمراض كما كان يعانى فى حياته الأسرية .. وسألنى هذا الزميل :

ما بال الأمراض كثرت بى رغم أننى أصوم وأصلى وأخرج زكاة أموالى .. ؟ فقلت له : ـ غفر الله لى وله ـ وهل تريد من صلاتك وزكاتك وعبادتك أن تكون حصنا لك من مصائب الحياة ؟ أم تريدها ذخراً لك عند ربك .. ؟

إننا لا نعيش فى جنة أو فى دار جزاء بل فى دار ابتلاء ، أما الجزاء والرضوان ففى الدار الآخرة .

(٦) عن عقبة بن رافع أن رسول الله ﷺ كان يقول « إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يحمى أحدكم مريضه الماء ليشفى » [١]

---

(١) قال فى مجمع الزوائد : رواه الطبرانى وإسناده حسن .

(٢) راجع آيات سورة الزخرف وشرحها فى هذا الكتاب وهى قوله تعالى : (ولولا أن يكونَ الناسُ أمة واحدةً لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضةٍ ومعارجَ عليها يظهرُونَ .... الآيات ٣٣ : ٣٥) .

تأمل حال المؤمن بين يدى الله تعالى .. !!! إنه مريض سقيم ويحتاج إلى علاج فما دواؤه ؟ .. إن دواء المريض أن يمتنع عن الماء ، والماء بالذات له دوره فى حياة الإنسان فهل يستطيع المريض احتمال ذلك ؟

إنه ـ إن لم يستطع ـ وجب على من حوله أن يمنعوا عنه الماء رحمة به وحرصا عليه .

والمؤمن مع الدنيا كالمريض مع الماء ، والمولى سبحانه وتعالى بعباده رحيم ، وهو الودود ، وهو اللطيف الخبير ، فهل يفتح ـ سبحانه ـ الدنيا على المؤمن يغرقها فيها ؟ كلا : إنه المؤمن ، وهو حبيب الرحمن .

ويتعهد الرحمن الرحيم عبده فيحميه من الغرق رحمة به ، ويحجب عنه الكثير من الدنيا ، حرصاً عليه .

(٧) عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أشد حمية للمؤمن من الدنيا من المريض أهله من الطعام ، والله عز وجل أشد تعاهداً للمؤمن بالبلاء من الوالد لولده بالخير » (٢) .

وهذا الحديث تأكيد لمعنى الحديث السابق ، فالله تعالى أشد تعاهداً للمؤمن بالبلاء ، حتى يستقيم عوده ، وتصفر صفحته ويزداد قرباً من مولاه ، وكأنى بالمولى سبحانه وتعالى يؤدب عبده المؤمن كما يؤدب الأب ابنه .. ولله المثل الأعلى فإذا كانت عصا لأب تضمن استقامة الابن وتقدمه ، ورقيه فى سلم الأدب والمناصب فإن البلاء للمؤمن كالعصا للابن حتى يترقى المؤمن فى الدرجات العلا

(٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » (٣)

علامات الفلاح : ١ ـ إسلام الوجه لله تعالى ٢ ـ أن يكون الرزق على قدر الحاجة فلا يزيد فيؤدى إلى الطغيان ولا ينقص فيؤدى إلى الحرمان .

٣ ـ أن يرزقه القناعة بما لديه فيكون ذلك سبباً فى إنقاذه من الحقد والحسد والطمع ، وما سوى ذلك من أمراض القلب .

---

(١) قال فى مجمع الزوائد : رواه أبو يعلى وإسناده حسن .

(٢) قال الهيثمى : رواه الطبرانى وإسناده فيهم من لم يُعرف ويقويه الحديث السابق ...

(٣) أخرجه الإمام أحمد

(٩) عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أغبط أوليائى (فى رواية : أغبط الناس) عندى مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه ، وكان فى الناس غامضاً لا يشار إليه بالأصابع فجعلت منيته وقلَّ تراثه وقلّتْ بواكيه »(١)

وهذه صفات بعض ذوى المكانة الرفيعة عند الله ورسوله :

* مؤمن خفيف الحاذ : لم يثقل كاهله بالمؤونة ومتاع العاجلة .

* ذو حظ من صلاة : فيعتبر أن الصلاة مغنم ينبغى أن يكون له حظ منها فهو حريص عليها .

* أحسن عبادة ربه : بالإخلاص ، والبعد عن الشبهات والرياء .

* وكان فى الناس غامضاً مجهولاً ... ليس من ذوى الوجاهة والمكانة بحيث لا يشار إليه بالأصابع فيقال هذا فلابن ابن فلان ، أو هذا فلان : وجيه بنى فلان أو : هذا صاحب المناصب .

* فعجلت منيته وهو على هذه الحال قبل أن يفارقها .

* وقل تراثه : فلم يترك شيئاً من عرض الدنيا الزائل أو ترك القليل الذى لا يؤبه له(٢)

* وقلّتْ بواكيه ، وذلك لغموضه فى الناس فيستوى عندهم رحيله وبقاؤه وفى هذا الحديث حد من الغرور ، وعلاج للكبرياء التى تداخل الناس إذا ما كانوا من أصحاب الثراء أو وجاهة فى الناس .

(١٠) عن العباس بن سالم اللخمى قال : بعث عمر بن عبد العزيز إلى أبى سلام الحبشى فحمل إليه على البريد ليسأله عن الحوض ، فقدم به عليه فسأله :

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) إلا أن يترك ولداً صالحاً يدعو له أو صدقة جارية أو علماً ينتفع به فهذا من الباقيات الصالحات التى يجرى ثوابها لصاحبها وهو فى قبره ..

فقال سمعت ثوبان يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن حوضي من عدن إلى عمان البلقاء ، ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلي من العسل ، وأكاويبه عدد النجوم من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، أول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين . فقال عمر بن الخطاب : من هم يا رسول الله ؟ قال : هم الشعث رؤساء الدنس ثياباً الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد فقال عمر بن عبد العزيز : لقد نكحت المتنعمات وفتحت لي السدد إلا أن يرحمني الله » (١)

من هم أول الواردين على حوض رسول الله ﷺ ؟ إنهم الفقراء فقراء المهاجرين : فما علاماتهم ؟

١ - إنهم الشعث الذين تلبدت شعورهم من الغبار يضربون في الأرض عاملين مجاهدين لا يبالون إن اتسخ شعرهم أو ثيابهم ، لا يبالون بالعناية بها ، ولا يداومون على تصفيفها .

٢ - ثم هم رؤساء الدنس ثياباً ، فثيابهم وسخة من طول ما ضربوا في الأرض، فالطهارة ليست في مجرد نظافة الثياب ونصاعته ، بل الطهارة بالبعد عن النجاسات والأرجاس المادية والمعنوية .

٣ - وهم الذين لا ينكحون المتنعمات المترفات فينشغلون بتوفير مظاهر الزينة وأسبابها لهن فيضيع منهم الكثير من أمور الآخرة .

٤ - كما أنهم لا تفتح لهم أبواب السّدد (٢) ، فلا يصلون إلى الحاكم بسهولة، ولا يرفعون له أمراً ، ولا تخشى لهم صولة ولا يراعى لهم مكانٌ ..

ولنا وقفة أمام هذه الصفات إن الإسلام دين نظافة وطهارة ، ولكنه ليس دين ترف وإسراف والمؤمن أولى أن يكون قذر الثياب من أن يكون مترفاً فإن المؤمن الشعث يرضى بأقل الثياب ولا يبالي نصاعتها مادامت بعيدة عن النجاسات .

* إنه لا قيمة لرجل ناصع الثياب جميل الهيئة يأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر .

---

(١) رواه أحمد

(٢) يقال وصل إلى سدة الحكم فهو تعبير عن كرسى الملك .

* والمؤمن الشعث يدوس على المتحكمين في الناس بالأهواء ، إذ لا يبالى إذا مُنع عنه الحرير وحجب عنه اللحم والشواء فهو ليس من أهل ذلك .

* والمؤمن الشعث لا يتطلع إلا إلى ربه يبحث عن مرضاته ويقطع الليل والنهار طالباً لرضاه عاملا في طاعته ، إن ناداه صارخ الجهاد لبى وطار إليه ، وإن دعاه داعى البذل والإنفاق أعطى غير نادم على ما أعطاه ، وإن أراده عدو على الخنا والذل لم يرض بهما .

* أما ذلك الشخص جميل الثياب حقير النفس فإنه يتلهى بالنظر إلى عطفيه والتأمل في ثيابه وبُرْديه ، والبحث عما يليق بالمواقف من زينة وملابس ، فيلهو عن الجهاد ، وربما يرائى بالعبادة فيضيع عمره هباءً .

* إن المؤمن الشعث لا يلقى قياده إلا إلى الله ، أما المترف فيضع زمامه بين يدى كل من يحقق له متعة ويمده بمنفعة عاجلة .

* ولعل هذا بعض فقه الحديث الشريف ، ولعل فى هذا بينة وحجة على الذين يتقاعدون عن الجهاد حرصاً على الدنيا فضاعت منهم الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

(١١) عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : يا أبا ذر أى جبل هذا ؟ قلت : **أُحُد يا رسول الله ، قال : والذى نفسى بيده ما يسرنى أن لي ذهباً قطعاً أنفقه في سبيل الله أدع منه قيراطا ، قال : قلت قنطاراً يا رسول الله ، قال قيراطاً (قالها ثلاث مرات) ثم قال : يا أبا ذر إنما أقول الذى هو أقلّ ولا أقول الذى هو أكثر .**

وعنه من طريق آخر : قال : ما يسرنى أن لى أحداً ذهباً أموت يوم أموت وعندي منه دينار أو نصف دينار إلا أن أرصده لغريم »(١)

أحد يتحول إلى ذهب .. إنها ثروة كبيرة . فماذا يكون التصرف فى هذه الثروة؟

ـ الإنفاق فى سبيل الله حتى لا يتبقى إلا قيراط .

ويُذْهل أبو ذر رضى الله عنه : كيف لا يتبقى من هذه الثروة الطائلة سوى قيراط ؟

فقال : قنطاراً يا رسول الله .

---

(١) رواه أحمد .

- ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد قيراطاً ويكررها ثلاث مرات ويعلل ذلك بقوله : يا أبا ذر ، إنما أقول الذى أقل ولا أقول الذى هو أكثر فالأقل من الدنيا يكفي ، أما الأكثر فإنه يُطْغي ، وتظهر الرواية الثانية الهدف من إبقاء جزء من الثروة « إلا أن أرصده لغريم » أى دائن أسدد له دينْه .

(١٢) عن علي بن رباح قال : سمعت عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول : **لقد أصبحتم وأمسيتم ترغبون فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه أصبحتم ترغبون فى الدنيا وكان رسول الله ﷺ يزهد فيها . والله ما أتتْ على رسول الله ﷺ ليلة من دهره إلا كان الذى عليه أكثر مما له قال : فقال له بعض أصحاب رسول الله ﷺ يتسلف»**(1).

* لا ينبغى لمؤمن أن يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ﷺ .

* فإذا كان رسول الله ﷺ قد زهد فى الدنيا ورغب فيما عند الله فلا ينبغى لمسلم أن يرغب في الدنيا ويرضى بها ويطمئن إليها ثم إذا به يزهد فى الآخرة .

فلو فعل مسلم ذلك لكان فيه معنى خطير . فكأنه - والعياذ بالله - يسفه رأى من سبقه (2) .

إن حياة الرسول ﷺ نبراسٌ يستضئ به أولوا الألباب نسأل الله تعالى أن يهبنا حسن الاقتداء .

(١٣) عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : **عرض علىّ ربى عز وجل ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً فقلت : لا يارب ، أشبع يوماً وأجوع يوماً (أو نحو ذلك) فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك .**

(١٤) عن أنس بن مالك قال : **دخلت على رسول الله ﷺ وهو على سرير مضطجع مرمل بشريط وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف فدخل عليه نفر من أصحابه ودخل عمر فانحرف رسول الله ﷺ انحرافة فلم ير عمر بين جنبيه وبين الشريط ثوباً وقد أثر الشريط بجنب رسول الله ﷺ فبكى عمر - فقال النبى ﷺ : ما يبكيك يا عمر؟ قال : والله إلا أن أكون أعلم أنك أكرم على الله عز وجل من كسرى وقيصر وهما يعبثان فى الدنيا فيما يعبثان فيه ، وأنت يا**

---

(1) رواه أحمد .

(2) ورد أن من علامات الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها ... وذلك بالطعن والرفض واللعن نعوذ بالله من ذلك .

رسول الله بالمكان الذى أرى فقال النبي ﷺ : **أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ فقال عمر : بلى . قال : فإنه كذلك »**[1] .

أراد النبى ﷺ أن يعلم أمته درساً عميقا يستفيد منه صاحب العقل الحكيم، ومن أراد الله له الهداية .فهل يكفى فى هذا الدرس أن يكون النبى ﷺ فقيراً ، يعانى شظف العيش وضيق ذات اليد ؟ لقد تحقق هذا في حياة النبى ﷺ ولكن مثل هذه الحياة قد لا تستثير فى نفوس البعض نخوة المتابعة ولا تستميلهم إلى الاقتداء ، وهنا يأتى الدرس الأسمى درس من السماء :

فلقد خيّر الله تعالى نبيه أن يكون ملكاً غنياً مع الرسالة أو أن يكون فقيراً .. عبداً رسولاً ونحن نقرأ هذا المشهد : (**عرض عليَّ ربى عز وجل ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً**) .

وهو عرض يسيل له لعاب الماديين الذين يتعلقون بالدنيا ، ولكنه لا يغرى صاحب الرسالة ، وينبغى ألا يغرّ أتباعه فلقد أبى رسول الله ﷺ أن تكون له البطحاء ذهباً .. فلماذا ؟ .

- إن للغنى فتنة ، وللثروة بريقاً خادعاً .
- وإن طبيعة الإنسان الغرور كما قال تعالى : (**إنَّ الإنسانَ ليطغَى أنْ رآه استغنَى ..**) (العلق : ٦ ، ٧)
- وللفقر دوره الإيجابى فى حياة المؤمن .. ويظهر هذا الدور الإيجابى فى قول الرسول ﷺ « **لا : يارب أشبع يوماً وأجوع يوماً ..** » فهل هذا رفض لنعمة الله ؟ كلا . إذ أن النبى ﷺ يدرك أن النعمة الحقيقية فى الآخرة . فهل يخشى رسول الله ﷺ من فتنة الدنيا ؟ وهذه أيضاً .. كلا فهو رسول الله والله كفيل أن يحفظه وهو الذى قال : ما معناه « لا أبالى أن لى أحداً ذهبا .. أنفقه فى سبيل الله .. » فهو يعرف كيف يتصرف فى نعمة الله ، ويوضح الرسول ﷺ الغاية :

* « فـإذا جعت تضرعت إليك فـذكرتك .. » * « وإذا شبعت حمدتك وشكرتك .. » .

إنه الارتباط التام بالمولى سبحانه وتعالى فى كل حال . واستحضار الفقر إلى

---

(١) أخرج هذا والذى قبله الإمام أحمد فى مسنده .

الله والحاجة إليه ، وهذا مثل ضربه رسول الله ﷺ لأمته ليتذكر من تذكر .

(١٥) أخرج أبو نعيم فى الحلية عن عروة قال : دخل عمر بن الخطاب على أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما **فإذا هو مضطجع على طنفسة رحله. متوسد الحقيبة فقال له عمر : ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : هذا يبلغنى المقيل . (وقال معمر فى حديثه) لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض فقال عمر : أين أخى قالوا : من ؟ قال أبو عبيدة قالوا : الآن يأتيك فلما أتاه نزل فاعتنقه ثم دخل عليه بيته فلم ير فى بيته إلا سيفه وترسه ورحله .. ثم ذكر نحوه »**[1] .

إن أبا عبيدة رضى الله عنه قد وعى درس النبوة ، وعرف الغاية من الحياة الدنيا ، إنما هذه الدنيا متاع ، وهى قنطرة الى الآخرة يكفى المؤمن منها مثل زاد الراكب ، وقد سكن أبو عبيدة رضى الله عنه الشام وهى بلاد كثيرة الخير ويمكن أن يكون له ثروة ، ولكنه يعلن هدفه فى وضوح : هذا يبلغنى المقيل ، نعم فالسيف والترس والرحل .. زاد يكفى حتى المقيل [2] .

(١٦) **(يا أيُّها الذين آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أمْوالُكُمْ ولا أولادُكُم عن ذِكْرِ اللَّهِ ومنْ يفْعلْ ذَلك فأولئكَ هُم الخَاسِرُون)** [3] .

* لا ينبغى للمؤمن أن يستسلم لأغلال الحياة * ولا ينبغى له أن يغيب عنه وسائل الحرية والنجاة .

* المال والبنون : زينة الحياة الدنيا .. وهذه الزينة : قيود تطوق الإنسان وتجعله سجين حبها وأسير هواها .* والخلاص يتحقق للمؤمن بذكر الله تعالى .

* فهل يجوز أن يسيطر حب المال والولد على الإنسان فينشغل بهما عن ذكر الله ؟ .. لو حدث هذا لكان هو الخسران المبين .

---

(١) قال فى صفة الصفوة أخرجه الإمام أحمد وقال فى الإصابة أخرجه ابن المبارك فى الزهد : نقلاً عن حياة الصحابة للكاند هلوى .
(٢) المقيل : الموت والقبر فكأنه قيلولة ينهض بعدها للحساب والجزاء .
(٣) المنافقون : ٩ .

* وهل يعقل أن يفضل المؤمن متاع الحياة الدنيا على ذكر الله تعالى ؟ .

* إن المؤمن حريص على حريته ، وحريص على قيمته ولا تتحقق له حرية إلا بالحرص على إيمانه ، فهو حقيقة قيمته في الدنيا ، ومصدر حريته ونجاته من العذاب يوم القيامة .

(١٧) عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : **إن أغبط أوليائى عندى لمؤمنٌ خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة ، أحسنَ عبادة ربّه ، وأطاعه فى السرّ وكان غامضاً فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً فصبرَ على ذلك ، ثم نفض بيده فقال : عُجّلَتْ منيته . . قلّتْ بواكيه قلّ تراثه . . »** [١] .

لو تخيلنا الظروف والجو الذى يكون فيه سؤال الناس وحسابهم لأدركنا قيمة التخفف من الدنيا .فالحرارة قاسية ، والزحام شديد ، وقد دنت الشمس من الرؤوس واختنقت الأنفاس ، وبلغت القلوب الحناجر ، واشتد العرق بالناس حتى ألجمهم .. تأمل هذه الظروف ، وتخيل نفسك فى زحام أمام أحد المكاتب وتذكر كيف يضيق الحال بالناس ؟ وكيف يصاب البعض بالإغماء ؟ تأمل - والقيامة أشد وأقسى - كيف يسعى البعض إلى إنهاء الإجراءات سريعاً ، وتقديم الإقرارات حتى يتسنى لهم مغادرة هذا المكان .. !!!

وفى هذا الموقف القاسى أدعوك أن توازن بين شخصين : شخص ديونه خفيفة ومسئولياته محدودة . وشخص آخر كثير المسئوليات متخم بالديون أو مثقل بها ، فأى الشخصين أحسن حالاً وأقرب إلى الخلاص ..؟؟

إنه الشخص الأول بلا شك .. وهذا مثل المؤمن خفيف الحاذ ليس عليه مسئوليات لأنه تخفف من الدنيا ويسوق الحديث جوانب تخففه :

* خفيف الحاذ * كان غامضاً في الناس مجهولاً لا يشار اليه بالبنان [٢]

* كان صابراً على الرزق المحدود (الكفاف) .

* عجلت منيته ، وقلّ من يبكيه ويحزن لفراقه وقلّ تراثه فلم يترك ثروة أو

---

(١) فيه على بن يزيد : ضعيف الحديث . قال الترمذى : حديث حسن وقد مرّ براوية أخرى فى الفقرة (٩) .

(٢) إشارة لعدم حرصه على المكانة الاجتماعية والجاه والشهرة .

مالاً فهو ضعيف العلاقة بالدنيا وأهلها .

وإذا كان المؤمن ضعيف العلاقة بالدنيا وأهلها فهو عميق الصلة بربه : ذو حظ من الصلاة وطاعة الله .. ولا يعلم بحقيقة عمله وطاعته إلا الله تعالى .

(١٨) عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قلّ ماله ، وكثرت عياله ، وحسنت صلاته ، ولم يغتب المسلمين جاء يوم القيامة وهو معى كهاتين..** »[١]

الحديث يعلم المسلم كيف يصبر على شدائد الدنيا :

وأولها : قلة المال مع ما فيه من فتنة ، ومع تعلق النفس به .

والثانية : كثرة العيال وما تستلزمه من جهد وعمل لسد الحاجة .

والثالثة : وهى انتصار على شدائد الدنيا بإحسان الصلاة ، فهو رغم فاقته يحافظ على الصلاة ويؤديها في وقتها ولا ينقرها نقر الديك وفي سبيل المزيد من الانتصار على الدنيا تأتي :

الرابعة : متمثلة فى طهارة النفس واللسان ، فهو لا يرى عيوب الناس لأنه مشغول بعيوب نفسه ، ولا يغتاب غيره لأنه مشغول بحاله مع الله من ذكر وتسبيح إنه يوم القيامة مع رسول الله ﷺ ، فى الفردوس الأعلى فى الجنة ..

---

(١) ذكره فى مجمع الزوائد .

[بين راغب الدنيا وراغب الآخرة]

(١) (ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ، إن يشأ يُذهبكم أيها الناسُ ويأت بآخرين وكان اللهُ على ذلك قديراً ، من كان يريد ثوابَ الدُّنيا فعندَ الله ثوابُ الدُّنيا والآخرة وكانَ اللهُ سميعاً بصيراً)(١)

الله هو القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو الرقيب الشهيد على كل شئ ، وهو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه كما قال : (وإن تتولَّوا يستبدل قوماً غيركم ثمَّ لا يكونُوا أمثالكم) قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره .. (وما ذلك على الله بعزيز) أى وما هو عليه بممتنع ، وقوله (من كان يريد ثواب الدنيا فعندَ الله ثوابُ الدُّنيا والآخرة) أى يا من ليس له همة إلا الدنيا : اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك كما قال تعالى (فمنَ النَّاس من يقُولُ ربَّنا آتنَا في الدُّنيا ومَا لَهُ في الآخرة منْ خلَاق . ومنْهم مَنْ يقولُ ربنا آتنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنَا عذابَ النَّار ، أُولئك لهم نصيبٌ مما كسبُوا والله سريع الحساب) (البقرة : ٢٠٠ ـ ٢٠٢)

« فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » ظاهر في حصول الخير فى الدنيا والآخرة أي : بيده هذا وهذا فلا يقتصر قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية فى الدنيا والآخرة فإن مرجع ذلك كله إلى الذى بيده الضر والنفع ، وهو الله الذى لا إله إلا هو الذى قسم السعادة والشقاوة بين الناس فى الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا وممن يستحق هذا ، ولهذا قال « وكان الله سميعاً بصيراً »

(٢) عن زيد بن ثابت قال : فى سياق حديث عن النبى ﷺ : « إنه مَنْ تكن

---

(١) النساء : ١٣٢ ـ ١٣٤ .

الدنيا نيته يجعل الله فقره بين عينيه ويشتت عليه ضيعته ، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له ، ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه في قلبه ويكفيه ضيعته وتأتيه الدنيا وهي راغمة »(١)

في هذا الحديث تحديد للوجهة التي يتولاها كل إنسان فمن تعلق بالدنيا عاش يترصد الفقر ، ويتمثل له الفقر في كل أحواله ، فهو دائماً في حاجة ، لا تراه يقنع بشئ لأنه يريد كل شئ ، ولا يقدر إلا على اليسير مما يريده . إن طالب الدنيا يتجسد الفقر أمامه عدواً دائماً ، وتراه مشتتاً فباله متعلق بعمل في القاهرة - مثلاً - وقلبه متعلق برغبته في بغداد ، وخياله يعايش أحلاما في أوربا وأمريكا فضيعته مشتتة ومجالات الرزق مبعثرة ..

أما من كان متعلقاً بالآخرة فإنه يصير غنياً عن الدنيا يراها بمقدارها ، ولا يتجاوز متاعها عنده شيئاً مذكوراً فهي معبر للآخرة فلا يطمع في التزود منها إلا بمقدار ما ينجو به في أخراه ، ومثل هذا لا يجد التشتت إلى قلبه سبيلاً ، لأن الدنيا تأتيه راغمة حتى يستوفى رزقه منها .

(٣) « عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : **تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه ، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه ، وما أقبل عبد بقلبه الى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالودّ والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع »**(٢)

وهذا الحديث تأكيد وتوضيح للمعاني التي ذكرت في الأحاديث السابقة ، وفيه - كما في غيره - تحذير من التعلق بالدنيا الفانية حتى لا تتشتت الضيعة وحتى لا يتجسد الفقر وحْشاً يهدد حياته بلا توقف ، وفيه أيضا ترغيب في الآخرة فالتعلق بها يضمن للإنسان الراحة في دنياه مع ما يضمن له من نعيم وهناء في جنات تجري من تحتها الأنهار

---

(١) قال الهيثمي : قلت روى ابن ماجة بعضه .. ثم قال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا .

(٢) قال في مجمع الزوائد رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب وهو ضعيف .

والحديث – بعد ذلك – يوضح فضل الإقبال على الله تعالى بالقلب فى إخلاص ويقين إذ يجمع الله قلوب المؤمنين حول المخلص بالود والرحمة ، وليس هذا فقط بل إن الله ضمن له الخير فى سرعة ..

(٤) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كانت الدنيا همته وسدمه[١] ولها يشخص وإياها ينوى جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه ضيعته ولم يأته منها إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة همته وسدمه ، ولها يشخص وإياها ينوى جعل الله عز وجل الغنى فى قلبه وجمع عليه ضيعته ، وأتته الدنيا وهى صاغرة** »[٢]

إنما الأعمال بالنيات ، فتأمل إذا كانت النية متجهة للدنيا متعلقة بها فماذا تكون النتيجة ؟

أ – فقر قريب .. دائم ، فطالب الدنيا يرى الفقر دائماً[٣]

ب – الضيعة تتمزق وتتشتت فهو لا يدرى عمله ولا يدرى كيف يصنع ويتشتت همه – فما الباب ؟ أو : أين المخرج ؟ إذا اشتغل بالتجارة طمع فى الصناعة وإذا فتح باباً فى الصناعة تطلع إلى الاستيراد والتصدير وغيره وغيره ورغم ذلك لاينال إلا نصيبه وقدره . أما طالب الآخرة فإنه يصير غنى القلب لايتشتت همه فى طلب الدنيا فغايته الآخرة ومثل هذا تأتيه الدنيا وهى صاغرة ذليلة فهو سيدها ، وليس عبداً لها ويؤكد ذلك الرواية التالية .

(٥) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كانت نيته الآخرة جعل الله تبارك وتعالى الغنى فى قلبه ، وجمع له شمله ونزع الفقر من بين عينيه ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، فلا يصبح إلا غنياً ولا يمسي إلا غنياً ، ومن كانت نيته الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه فلا يصبح إلا فقيراً ولا يمسى إلا فقيراً** »[٤]

---

(١) أى الولوع بالشئ .

(٢) قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط بسندين فى أحدهما داود بن المحبر وفي الآخر أيوب بن حوط وكلاهما ضعيف جدا .

(٣) تأمل هذا المعنى وأنت تسمع شكوى الناس من غلاء المعيشة وعدم القدرة على تحقيق المطالب ، فالإنفاق يزداد ، والمال يقل فى القيمة وشكاوى كثيرة تزداد وكأنهم فى فقر دائم .

(٤) قال الهيثمى : رواه البزار وفيه إسماعيل بن مسلم المكى وهو ضعيف ، ولعل هذه الرواية تزكى سابقتها وتحسنها والله أعلم .

(٦) عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « من أحب دنياه أضرّ بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى »[1]

وهذا الحديث يجعل المؤمن في حالة تأهب دائم ليعمر آخرته وليؤثر ما يبقى على ما يفنى ، وإن من أعجب العجب أن ينفق الإنسان مئات الألوف من الجنيهات لإقامة مبنى شاهق عمارة كان أو مصنعاً يتركه للورثة ثم يبخل بالزكاة وهي حق الله تعالى.. وهي - أيضا - تضمن لمؤديها الجزاء الأوفى عند الله تعالى يوم القيامة .

ولقد أنفقت عائشة رضي الله عنها كل نصيبها من بيت المال في يوم ونسيت أن تبقي بعض الدراهم لتشترى بها لحماً وكانت صائمة ، ولما حدثتها جاريتها بذلك قالت : لو ذكرتني لفعلت (أي لأبقيت بعض الدراهم لشراء لحم نُفطر به) وذبح أهل بيت النبي ﷺ شاة تصدقوا بلحمها وأبقوا الذراع للنبي ﷺ - وكان يحبه - فلما جاء رسول الله ﷺ أخبروه بأن الشاة لم يبق منها إلا الذراع ، فقال صلى الله عليه وسلم : بقيت الشاة كلها إلا ذراعها . نعم ، فالصدقة هي الباقية ، وكثير من الصحابة والصالحين رضوان الله عليهم تصدقوا بأموالهم ، وبذلوا أنفسهم في سبيل الله .. فهذا عثمان رضي الله عنه ينفق في تجهيز جيش العسرة حتى قال ﷺ « ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا » .. كما أنه اشترى البئر من اليهودى وجعلها للمسلمين حيث كانت ملكاً ليهودى يغالى في طلب ثمن الماء فرغّب النبي ﷺ في شرائها فأراد عثمان شراءها فأبى اليهودى أن يبيعها ؛ ورضى أن يبيع نصفها فاشتراه عثمان وجعله للمسلمين يأخذون في يومه ما يشاءون حتى لا يضطروا للشراء من اليهودى الذى رأى أن عثمان أفسد عليه البئر فباعه له كله فجعله للمسلمين واسم البئر « بئر رومة »

وصدق رسول الله ﷺ : من أحب آخرته أضر بدنياه .

فما بالنا نرى اليوم أقواماً عزّتْ عليهم أموالهم فمنعوا الزكاة ؟ ولعبت مظاهر الترف بعقولهم فنسوا ظلمة القبر ، وقسوة الحساب ، ولقد نعى القرآن على هؤلاء

---

(١) رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات كما قال الهيثمي .

الذين طمعوا فى الخلود فى دنياهم فقال تعالى :

(أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون)

(الشعراء ١٢٨ ـ ١٢٩)

(٧) عن شريح بن عبيد الحضرمى أن أبا مالك الأشعرى لما حضرته الوفاة قال : يا سامع الأشعريين : ليبلغ الشاهد منكم الغائب : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **حلوة الدنيا مرة الآخرة ، ومرة الدنيا حلوة الآخرة** » [١]

فمن أراد أن تطيب له آخرته فليرهق دنياه ، وليستعملها في مرضاة الله .

* الإنفاق في سبيل الله * قيام الليل والتقرب إلى الله بالصلاة
* الجهاد في سبيل الله * الصدق فى الشهادة .

كل هذه الأمور وغيرها – رغم ما فيها من قسوة أحياناً – فيها الخير ، ويقطف المؤمن ثمرتها في الآخرة .

(٨) **(الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ، من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب)** [٢]

الحذر الحذر .. فحبّ الدنيا والتعلق بها ، والاقتصار عليها هلاك ودمار،ومن العجيب أن من أراد الآخرة وحرثها زاده الله في حرثه . أما من اقتصر على الدنيا ، وقصر همته عليها جاءه منها ما قدر له فيها ، ثم كان محروماً في الآخرة . **وتأمل خطر الميل القلبى والإرادة** .. مجرد الإرادة ..

فمن أراد الآخرة .. زاده الله ، ومن أراد الدنيا كانت إرادته سبباً لضياعه في الدنيا والآخرة .

قال ابن كثير[٣] « حرث الآخرة أي عمل الآخرة (نزد له فى حرثه) أى نقويه ونعينه على ما هو بصدده ، ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شئ من الدنيا وليس له

---

(١) قال الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى ورجاله ثقات .

(٢) الشورى : ١٩ – ٢٠.

(٣) فى تفسيره جـ٤ صـ ١١٩ .

إلى الآخرة همٌّ أَلْبَتَّةَ بالكلية حرمه الله الآخرة ، والدنيا إن شاء أعطاه منها وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ، قال ﷺ **« وبشّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب »**

(٩) **(فإذا قَضَيْتم مناسِكَكُم فاذْكُرُوا اللَّهَ كذكْرِكُم آباءكُم أو أشدَّ ذِكْراً فمن الناس من يقولُ ربَّنا آتنا فى الدنيا وما له في الآخرة من خَلاق ، ومنْهم من يقولُ ربَّنا آتنَا في الدُّنْيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وقنا عذابَ النَّار ، أولئكَ لهم نَصيبٌ مما كَسبُوا واللّهُ سريعُ الحساب)** (١)

إن الحياة هبة من الله تعالى وقد أنعم الله بنعمه الجمة على الإنسان «**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » . ومن الناس من استهوته نعم الفانية فغفل عن نعيم الباقية ، وهذا الصنف لا خلاق له في الآخرة وفريق آخر لم يلههم أمر الدنيا عن أمر الآخرة فدعوا ربهم : **(رَبَّنَا آتِنَا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنَا عذابَ النارِ)**

وحسنة الدنيا الرزق الطيب والعافية وما يتصل بذلك من خير .وحسنة الآخرة الجنة بعد الأمن من الفزع الأكبر . وقد اقترن طلب الحسنة في الآخرة بطلب النجاة من النار تأكيداً للتعلق بالنعيم والخوف من العذاب الأليم . قال تعالى **(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)** وهكذا يكون هَمُّ المؤمن في سعيه في الحياة الدنيا لا يغيب عنه أحوال الآخرة فالمؤمن يده على الدنيا وقلبه في الآخرة .

إن الله تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو مُعرض عن أخراه فقال (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق) أى نصيب ولا حظ وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس وكان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ولا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله هذه الآية . . وكان يجي بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) . . فأنزل الله

---

(٢) البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢ .

تعالى (أولئك لهم نصيب مما كسبوا) جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شرّ ، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي : من عافية ودار رحبة وزوجة حسنة ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ، ولا منافاة بينها فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا ، وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه ، من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، قال القاسم أبو عبد الرحمن : من أعطى قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وجسداً صابراً فقد أوتى في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقي عذاب النار »(١)

(١٠) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اجعل رزق آل بيتي قوتاً (ومن طريق ثان) بلفظ : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا . » .

(١١) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « ما من أحد يوم القيامة غني ولا فقير إلا ودّ أنما كان أوتي من الدنيا قوتاً »

(١٢) عن فضالة بن عبيد قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس خرّ رجال من قامتهم في الصلاة لما بهم من الخصاصة وهم من أصحاب الصُفّة حتى يقول الأعراب إن هؤلاء مجانين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ الصلاة انصرف إليهم فقال لهم : لو تعلمون ما لكم عند الله عز وجل لأحببتم لو أنكم تزدادون حاجة وفاقة ، « قال فضالة : وأنا مع رسول الله ﷺ يومئذ » .

(١٣) عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « إن موسى عليه الصلاة والسلام قال : أي رب عبدك المؤمن تقتر عليه في الدنيا ، قال : فيفتح له باب الجنة فينظر إليها ، قال يا موسى : هذا ما أعددت له ، فقال موسى : أي رب وعزتك وجلالك لو كان أقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته الي يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بؤساً قط . قال : ثم قال : موسى أي رب : عبدك الكافر توسع عليه في الدنيا : قال : فيفتح له باب من النار

---

(١) راجع ابن كثير جـ١ صـ ٢٥٢ / ٢٥٣ .

فيقال : يا موسى هذا ما أعددت له فقال موسى أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته الي يوم القيامة وكان هذا مصيره كأن لم ير خيراً قط » (١)

في هذه الأحاديث نلمس ثلاثة جوانب :

(١) القدوة (٢) النعمة (٣) المشهد والحقيقة

أولا : القدوة : وتظهر هذه القدوة في دعاء خير البرية محمد ﷺ « اللهم اجعل رزق آل بيتى (آل محمد) قوتاً .. » فهو عليه الصلاة والسلام يضرب المثل لأمته إذ لو كان للدنيا قيمة فى الميزان والاعتبار لكان ﷺ أسرع الناس إلى الحرص عليها والتمسك بها ، ولدعا الله أن يوسع عليه ، ولكنه يطلب من الله أن يجعل رزق آل بيته مجرد قوت .

ثانيا : النعمة : وتظهر فيما بشر به رسول الله ﷺ الفقراء الذين كانوا يتساقطون ويخرون من قامتهم مما يعانون من الفقر فكان ﷺ ينصرف إليهم مهدئا ومطمئناً : فيقول لهم « لو تعلمون ما لكم عند الله عز وجل لأحببتم لو أنكم تزدادون حاجة وفاقة (أى فقراً) .

فالعلاقة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة علاقة عكسية إذ كلما ازداد الترف والنعيم في الدنيا تناقص النصيب من نعيم الآخرة والعكس أى كلما نقص الترف فى الدنيا ازداد النصيب في نعيم الآخرة .

ثالثاً المشهد والحقيقة: يسوق النبى ﷺ مشهداً عاماً إذ يوم القيامة سيكون كل الناس متمنين أمنية واحدة : الفقير والغنى كلاهما يتمنيان أن لو كان الرزق في الدنيا قوتاً مما يرى هول الحساب على النقير والقطمير .

وفي تساؤل من موسى عليه السلام تظهر الحقيقة جلية :

- أى رب : ما بال العبد المؤمن تقتر عليه في الدنيا ؟
- أى رب : ما بال عبدك الكافر توسع عليه في الدنيا ؟

وتأتى الإجابة العملية:

فيفتح باب الجنة ليرى موسى عليه السلام ما ينتظر المؤمن من نعيم

---

(١) رواه الإمام أحمد وخرجها صاحب الفتح الربانى فليراجع .

فتتضاءل جوانب الشقاء وتختفي حتى قال موسى عليه السلام : « أى رب وعزتك وجلالك لو كان أقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه من يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير بؤساً قط »

أرأيت ؟ وأرجو أن تتأمل كيف يكون النعيم يمحو آثار الشقاء مهما بلغت .

ثم يُفتح باب من النار ليرى موسى عليه السلام ما ينتظر الكافر الذى وسعت عليه الدنيا وتفتحت له أبواب الترف ، ويهتف موسى عليه السلام : « أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره كأن لم ير خيراً »

(١٤) عن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال : « **اثنتان يكرههما ابن آدم : الموت ، والموت خير من الفتنة ويكره قلة المال : وقلة المال أقل للحساب** » (١)

يدعو الإسلام للتعقل حتى يفوز المؤمن بخير الدنيا والآخرة ولقد نبه القرآن إلى أن العاطفة المطلقة ليست خيراً دائماً أو شراً مستمراً ولكن الخير قد يأتى فى ثنايا ما نكرهه ، والشر قد يساق بين طيات ما نحبه كما قال تعالى : (**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم**)

(البقرة : ٢١٦)

ويبين الحديث الذى بين أيدينا جانبا من هذه الجوانب فيبين أن ابن آدم يكره الموت ، ولكن الموت خير له من التعرض للفتن التى يمكن أن تضيع عليه الكثير من الخير وتعرضه للشر بل تعرضه للكفر أحياناً قال تعالى : (والفتنة أشد من القتل) والمؤمن يكره قلة المال وهى خير له لأنها أخف في الحساب وفي ذلك تثبيت لقلب المؤمن ويقينه ، ولقد قرأنا في الهدى النبوى أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم أى خمسمائة عام قال تعالى: (**وإنَّ يوماً عند ربّك كألف سنة مما تَعدُّون**) (الحج : ٤٧)

(١٥) عن أبى أسماء أنه دخل على أبى ذر وهو بالربذة وعنده امرأة سوداء بشعة ليس عليها أثر المجاسد (٢) ولا الخلوق فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرنى

---

(١) قال فى مجمع الزوائد : رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح .

(٢) المجاسد : جمع مُجْسَد وهو الثوب المصبوغ المشبع بالجسد وهو الزعفران والعصفر .

به هذه السويداء ؟ تأمرني أن آتي العراق فإذا أتيت العراق مالوا عليّ بدنياهم ، وإن خليلي صلى الله عليه وسلم عهد إليّ أن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض (أي زلق) ومزلة ، وإنا إن نأت عليه وفي أحمالنا اقتدار أو اضطمار أحرى أن ننجو من أن نأتي عليه ونحن مواقير»(١)

(١٦) عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : **إن بين أيديكم عقبة كئوداً لا ينجو منها إلا كل مخف »**(٢)

(١٧) عن أنس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً وهو آخذ بيد أبي ذر فقال : **يا أبا ذر : أعلمت أن بين أيدينا عقبة كئوداً لا يصعدها إلا المخفون ؟ فقال رجل : يا رسول الله : أمن المخفين أنا أم من المثقلين ؟ فقال : عندك طعام يوم ؟ قال : نعم . وطعام غد ؟ قال : نعم ، وطعام بعد غد ؟ قال : لا . قال : لو كان عندك طعام ثلاث كنت من المثقلين »** (٣)

من هذه الأحاديث يتبين لنا مدى حرص رسول الله ﷺ على توجيه أمته ونصيحتهم حتى لا يضلوا :

* فالدنيا حلوة خضرة * والآخرة غيب وطريقها وعر وشاق

* ودون جهنم جسر خطير وعقبة كئود ، وهذا الطريق زلق (أى أملس) ومزلة (أي يزل عنه السائر ويقع)

* إن ما يناله الإنسان من الدنيا سيأتي إلى الآخرة ليُسأل عنه فكيف ينجو من مزالق الطريق وهو ذو أحمال ؟ وكيف يستطيع النجاة إذا تثاقلت خطاه مما حمل ونال؟

وتأمل كيف فهم أبو ذر عن رسول الله ﷺ فأبى أن يأتي العراق خوفاً من أن يميلوا عليه بدنياهم فيكون من المثقلين .

(١٨) « عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ **« يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى ، يا أيها الناس إنما هى نجدان (أي**

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ومواقير أى حملنَ حملاً ثقيلاً .

(٢) رواه البزار ورجاله ثقات .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط وفيه جنادة بن مروان قال أبو حاتم ليس بالقوي وبقية رجاله ثقات

طريقان) مجد خير ، ومجد شر ، فما جعل مجد الشر أحب إليكم من مجد الخير ؟ » (١)

يوضح الحديث طريق الوصول إلى الله تعالى والقرب منه سبحانه فالطريق إلى الله والتعلق به لا يسلم مع حب الدنيا والتلهى بها والتعلق بمتاعها **فما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى** وطريق الخير واضح وقريب ويتساءل الرسول ﷺ : **فما جعل مجد الشر أحب إليكم من مجد الخير ؟**

وهذا السؤال على سبيل التعجب والإنكار والتنبيه ، وكأنه ﷺ يحذر وينبه المؤمنين حتى لا يتعلقوا بالدنيا وما تجلبه من شرور .

(١٩) عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ **لما بعث به إلى اليمن قال: إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين »**

(٢٠) عن أبى عسيب قال : خرج رسول الله ﷺ ليلاً فمرّ بى فدعانى إليه فخرجت ثم مر بأبى بكر فدعاه فخرج إليه ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار . فقال لصاحب الحائط : أطعمنا بسراً فجاء بعذق فوضعه فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه ثم دعا بماء بارد فشرب فقال لتسألن عن هذا يوم القيامة قال : فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البُسر قِبَلَ رسول الله ﷺ ثم قال : يا رسول الله أئنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : نعم إلا من ثلاث ، خرقة كفّ بها الرجل عورته أو كسرة سد بها جوعته أو جحْراً يتدخل فيه الحر والقرّ » (٢)

ومعاذ بن جبل يستمع إلى نصيحة رسول الله ﷺ : إياك والتنعم أى الترف، وهو مهلك يمزق الأمم ويشغل بتفاهات الحياة ويلهى عن عظائمها وأهدافها .

والنعيم مجال السؤال يوم القيامة « **ثُمَّ لتسألُنَّ يومئذٍ عن النعيم** »
(التكاثر : ٨)

وهذا ما سنعرض له حسب الإمكان إن شاء الله .

* * *

(١) قال الهيثمى : رواه الطبرانى من حديث فضال عن أبى أمامة وفضال ضعيف .

(٢) رواها أحمد فى مسنده .

خطر الترف

(١) أخرج الترمذى - وحسّنه - وأبو يعلى وابن راهويه عن علي رضى الله عنه قال : خرجت في غداة شاتية من بيتى جائعاً حرصاً قد أذلقنى البرد ، فأخذت إهاباً مقطوعاً كان عندنا فجببته ثم أدخلته فى عنقى ثم حزمته على صدرى أستدفئ به ، فوالله ما فى بيتى شئ آكل منه ، ولو كان فى بيت النبى ﷺ لبلغنى ، فخرجت في بعض نواحي المدينة فاطلعت إلى يهودى فى حائط من ثغرة جداره فقال: مالك يا أعرابى ؟ هل لك في كل دلو بتمرة ؟ فقلت : نعم فافتح الحائط ففتح لي فدخلت فجعلت أنزع دلواً ويعطينى تمرة حتى امتلأت كفي قلت : حسبى منك الآن . فأكلتهن ثم كرعت الماء ثم جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجلست إليه فى المسجد وهو في عصابة من أصحابه فاطلع علينا مصعب بن عمير رضى الله عنه في بردة له مرقوعة ، فلما رآه رسول الله ﷺ ذكر ما كان فيه من النعيم ، ورأى حاله الذى هو عليها انذرفت عيناه فبكى ثم قال :**كيف أنتم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى وسترت بيوتكم كما تستر الكعبة؟ قلنا :نحن يومئذ خير ، نكفي المؤنة ونتفرغ للعبادة قال : بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ »**(١)

فى الرواية شخصيتان : علي بن أبى طالب : رضى الله عنه وقد عضه البرد والجوع ، وقد رضى بالأجرة : كل دلو بتمرة حتى امتلأت يده فاكتفى بما حصل فأكله وشرب ثم مضى إلى رسول الله ﷺ **ومصعب بن عمير** رضى الله عنه وقد ظهر في حالة يرثى لها حتى بكى رسول الله ﷺ حين ذكر ما كان عليه .. ورأى ما صار إليه وقد تنبأ الرسول ﷺ أن الترف لا قيمة له ، فهو لا يعين على عبادة

---

(١) نقله الكاندهلوى عن الكنز جـ٣ صـ٣٢١ ونقل عن الهيثمى : رواه أبو يعلى وفيه راوٍ لم يسمّ .. وبقية رجاله ثقات .

ولا يفرغ لها . بل يشغل القلب بحب المزيد من الدنيا والركون إليها .

ولقد بيّن لهم أن حالهم - كمؤمنين - مع الفقر أفضل في ميزان الإيمان ، وإذا كان الترف يتيح الفراغ فإنه فراغ أقرب إلى الضياع وأكثر بعداً عن قضايا الإيمان ، فالترف مدعاة إلى الطمأنينة للحياة الدنيا والرضا بها والحرص عليها مما يضعف نوازع اليقين في النفس .

ونحن نرى مصعب بن عمير على حال يبكي لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان معروفاً في مكة بحسن المظهر وطيب الريح وجمال الهيئة فكانت ثيابه من الحرير ، وعطوره من أثمن العطور ، ولكنه أسلم واتبع طريق الإيمان ، فخالط الإيمان قلبه فوجد حلاوة تخالط روحه وأحس بمتعة تتصاغر حيالها كل متعة عرفها فإذا به يستغنى بحلاوة الإيمان عن جمال المظهر ، وتتعاظم في نفسه ألوان البهاء الروحيّ فينشغل بها عن أثمن العطور وأبهى الحلل.

ونزل قوله تعالى: (**مِنَ المؤمنين رجالٌ صدقُوا ما عاهدُوا اللهَ عليه فمنهُمْ مَنْ قضى نَحْبَه ومنهم مَنْ ينتظرُ وما بدَّلوا تبديلاً**) (الأحزاب : ٢٣) ليعلن عن حقيقة الشاب المجاهد ... الصحابى الشهيد مصعب بن عمير ومن هم في مثل حاله ،، رضي الله عنهم أجمعين .

(٢) أخرج أحمد والبزار عن أبى ذر رضى الله عنه قال : **بينما النبي ﷺ يخطب إذ قام أعرابى فيه جفاء فقال : يارسول الله : أكلتنا الضبع (أى السنة المجدبة) فقال النبي ﷺ : غير ذلك أخوف لى عليكم حين تصب عليكم الدنيا صباً فياليت أمتى لا يتحلون الذهب »** [(١)]

(٣) أخرج الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه في حديث قال : **جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال : « إن مما أخاف عليكم ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »**

(٤) أخرج أبو يعلى والبزار عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ **« لأنا لفتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء ، إنكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم ، وإن الدنيا حلوة خضرة »**

---

(١) جاء فى الترغيب رواة أحمد رواة الصحيح .

تأمل جوانب البلاغ والتحذير :

* أخوف ما يخاف رسول الله ﷺ على أمته حين تُصبُّ عليهم الدنيا صبّاً.
* ومما يخافه ﷺ .. ما يفتح الله على الناس من زهرة الدنيا وزينتها .
* وتأمل قوله ﷺ : لأنا لفتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء .

فما بال التحذيرات تتوالى من زهرة الحياة الدنيا !

والجواب : إن الإيمان سمو وتطلع إلى ما عند الله تعالى ولا يجتمع للإنسان تطلع إلى الشئ وضده إذ لا بد أن يتفرغ لأحد الضدّين فإنه إن تطلع للدنيا وتفرغ لها ذهل عن أمر الآخرة : وإن تفرغ للآخرة ذهل عن التعلق بالدنيا حتى إنها لو اجتمعت له لسخرها لغرضه الأسمى كي يجمع بها الآخرة .

(٥) **﴿ وإذا أردنا أن نُهلِكَ قريةً أمَرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمّرناها تدميراً ﴾**(١)

(٦) **﴿ وإنْ من قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها قبلَ يومِ القيامة أو معذّبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتابِ مسطوراً ﴾**(٢)

المترفون في كل أمة : طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة فينعمون بالدعة والراحة وبالسيادة ، حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجانة ، وتستخف بالقيم والمقدسات والكرامات وتلغ في الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً ، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها ، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخى وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحتها .

والآية تقرر سنة الله هذه فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك فكثر فيها المترفون فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم ، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها ، فعمَّ فيها الفسق فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله وأصابها الدمار والهلاك ، وهى المسئولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدى المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذى يسمح بوجود المترفين فوجود

---

(١) الإسراء : ١٦ .

(٢) الإسراء : ٥٨ .

المترفين ذاته هو السبب الذى من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك ، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك .

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف وسنناً لا تتبدل ، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته ، والله لا يأمر بالفسق ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء ، ولكن وجود المترفين في ذاته دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها وسارت في طريق الانحلال وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقاً وهى التى تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة ، **فالإرادة** هنا ليست إرادة للتوجيه القهرى الذى ينشئ السبب ولكنها ترتب النتيجة على السبب ، الأمر الذى لا مفر منه لأن السنة جرت به ، والأمر ليس أمراً توجيهياً إلى الفسق ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجودالمترفين وهى الفسق [1]

(٧) عن الدينورى عن الحسن أن سلمان الفارسى أتى أبا بكر الصديق -رضى الله عنهما - في مرضه الذى مات فيه فقال : أوصنى يا خليفة رسول الله ، **فقال أبو بكر : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا يأخذنّ منها أحد إلا بلاغاً »**

(٨) عند أبى نعيم فى الحلية عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : دخلت على أبى بكر رضى الله عنه في مرضه الذى توفي فيه ، **فسلمت عليه فقال : رأيت الدنيا قد أقبلت ، ولما تقبل ، وهى جائية وستتخذون ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألمون ضجائع الصوف الأزرى كأن أحدكم على حسك السعدان ، ووالله لأن يقدم أحدكم فيُضرب عنقه - في غير حد - خيرٌ له من أن يسبح فى غمرة الدنيا »**[2]

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٢٠٧ .

(٢) جائية : آتية ، ونضائد الديباج يعنى الزخارف والفرش والوسائد أما قوله : تألمون ضجائع الصوف أي تتألمون من خشونة الفرش الصوفية إذ ترق أبدانهم من الترف ، وحسك السعدان يعنى الشوك.

* الدنيا بلاغ * لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه فى غير حد خير من أن يسبح في غمرة الدنيا .

* وذلك من فقه الإسلام .. حيث وقف الصّدّيق رضى الله عنه من الدنيا الموقف الذى يرضاه الإسلام ، ولا يضر بآخرة المسلم .

(٩) فى رواية أن النبى ﷺ رأى له رجل رؤيا فبعث إليه فجاء فقصها عليه وكان عظيم البطن **فقال بأصبعه في بطنه : لوكان هذا في غير هذا المكان لكان خيراً لك** . رواه الطبرانى وفي رواية لأحمد « إلا أنه جعل أن النبى ﷺ هو الذى رأى الرؤيا للرجــل » .

(١٠) أخرج مالك عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أدرك جابر بن عبد الله رضى الله عنه ومعه لحم فقال عمر : أما يريد أحدكم أن يطوى بطنه لجاره وابن عمه فأين تذهب عنكم هذه الآية : **« أذهبتمْ طيباتكُم في حياتِكُم الدنيا واستمتعتُمْ بِهَا »** (الأحقاف : ٢٠)

إن التخمة خطر ولا يقتصر خطرها على صحة الإنسان بل فيها خطورة على تفكيره ونفسيته ويقينه . ولك أن تسأل نفسك ما عسى أن يفكر فيه الشخص المتخم ؟ ما القيم التى يتعلق بها ؟

ولك أن تجيب : إن تعلق هذا المتخم لا يمكن أن يجاوز حدود بطنه وتخمته .

فهو لن يفكر في قيمة إنسانية أو مبدأ دينى ، ولن تكون الآخرة نصب عينيه إلا بقدر ما يملأ معدته . فالآخرة عنده نهم وشره شأنه في ذلك شأن صاحب الجنتين الذى ذكرته سورة الكهف حينما تجسدت عنده الأنانية والجشع فتخيل أن الآخرة له كما أن الدنيا أصبحت له واستمع إليه فى زهوه وغروره (**ولئن رُدِدْتُ إلى ربى لأجدنَّ خيراً منها مُنْقلباً**) . (الكهف : ٣٦)

وارتباط المؤمن بالدنيا ارتباط محكوم بالإيمان ، محدود بحقائق الآخرة ، فهو لا يحمل من الدنيا إلا ما يتسلح به للآخرة .

ويقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه موقف الفاقه الفاهم لدينه ويوجه الأنظار إلى آيات القرآن الكريم فأين تذهب عن الأذهان هذه الآية التى تلوم المعذّبين وتحكى موقفهم المخزى يوم القيامة «**أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا** » وقد طلب عمر منا : أن نطوى البطون لإخواننا وأهلنا ونحس بإحساسهم ولاتلهيناالبطون عن شرف الآخرة.

الخوف والإشفاق
من إقبال الدنيا وزينتها

(١) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :« **اقتربت الساعة وهى لا تزداد منهم إلا بُعْداً** »(١)

يشير هذا الحديث إلى حقيقة هامة ، وموقف غريب فلقد مرت آلاف السنين منذ عهد الرسالة الأول .. منذ خلق آدم والله أعلم ، ولا شك أن مرور السنين يعنى اقتراب الساعة ، ولقد قرأنا كيف كان المؤمنون الأوائل مشفقين من الساعة والمنطق يوجب أن يكون المتأخرون أكثر إشفاقاً وأشد خوفاً ممن سبقوهم لأنهم أقرب إلى الساعة منهم ، وزمانهم أكثر قرباً من زمان الأولين ولكنك ترى العكس تماماً ، فأقرب الناس للساعة أكثر اطمئناناً وأثبت جناناً وكأنهم فى مأمن منها

ولقد ران على القلوب حب الدنيا وغشى على العيون مظاهر الترف فيها والتمست النفوس جوانب الزخرف منها ، فبعدت الآخرة عن عقولهم ، وخفت صوت القارعة في آذانهم ، وتثاقلت ذكريات الموت في أفئدتهم ، فعموا وصموا ، وتباعدوا عن الآخرة حين استكانوا للدنيا واستراحوا لظلها نسأل الله العافية .

(٢) أخرج البزار عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : كنا مع أبى بكر رضى الله عنه فاستسقى فأتى بماء وعسل فلما وضعه على يده بكى وانتحب حتى ظننا أن به شيئاً ولا نسأله عن شئ ، فلما فرغ قلنا .. يا خليفة رسول الله ﷺ ما حملك على هذا البكاء؟ **قال : بينما أنا مع رسول الله ﷺ إذ رأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولا أرى شيئاً فقلت : يا رسول الله ما الذى أراك تدفع ولا أرى شيئاً؟ قال:الدنيا تطولت لي فقلت: إليك عنى . فقالت أما أنك لست بمدركى ،**

---

(١) قال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح ، وله رواية أخرى عند البزار وفيه عبد الواحد بن زيد الزاهد وهو ضعيف عند الجمهور وذكره ابن حبان في الثقات وقال : يعتبر حديثه إذا كان فوقه ثقة ودونه ثقة وبقية رجاله ثقات .

قال أبو بكر : فشق ذلك عليّ وخشيت أن أكون قد خالفت أمر رسول الله ﷺ ولحقتني الدنيا »

إن الدنيا تطولت لرسول الله ﷺ وعرضت نفسها عليه ، ولكن ما الدنيا ؟ أليست هي الزوال والغرور ؟ أليس النبي ﷺ هو الطبيب الذي تخصص في علاج أعراضها والعمل على استئصال دائها في النفوس ؟ إليك عني ..!! ابعدي عني أيتها الدنيا .. وكأنما رسول الله ﷺ يهتف بالأجيال : **إنما أنا الداعي إلى الجنة المحذر من غرور الدنيا ، فلا تبيعوا الخلود بالفناء والحقيقة بالغرور .**

ولقد دفع النبي ﷺ عن نفسه الدنيا باقتدار واستطاع أن يقهرها حتى اعترفت له بذلك وقالت للنبي ﷺ « أما أنك لست بمدركي » وتذكر أبو بكر الموقف حين قدم إليه ماء وعسل فخشي أن يكون قد خالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكون الدنيا قد لحقته بسبب ذلك .

ونأخذ من الحديث أن مخالفة أمر رسول الله ﷺ خطر يجعل المؤمن غافلاً عن الآخرة متعلقاً بالدنيا .

(٣) أخرج البيهقي عن المنصور بن مخرمة رضي الله عنه قال : أُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بغنائم القادسية فجعل يتصفحها وينظر إليها وهو يبكي ومعه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال له عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين هذا يوم فرح وهذا يوم سرور قال : فقال : أجل . ولكن لم يؤت هذا قوم قط إلا أورثتهم العداوة والبغضاء »

(٤) عن الحسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتي بفروة كسرى فوضعت بين يديه وفي القوم سراقة بن مالك بن جعشم رضي الله عنه قال : فألقى إليه سواري كسرى بن هرمز فجعلها في يده فبلغا منكبيه فلما رآها في يدي سراقة قال : الحمد لله سواري كسرى بن هرمز في يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج ، ثم قال : اللهم إني قد علمت أن رسولك ﷺ كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلى عبادك وزويت[1] ذلك عنه نظراً منك له وخياراً ثم قال : اللهم إني علمت أن أبا بكر رضي الله عنه كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظراً منك له وخياراً اللهم

---

(١) زويت : حبست .

إني أعوذ بك أن يكون هذا مكراً منك بعمر ثم تلا (**أَيَحْسَبُون أنَّما نُمِدُّهم به من مالٍ وبنينَ نسارعُ لهم في الخيراتِ بل لا يشعُرون**) (المؤمنون : ٥٥)

(٥) قال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله عز وجل بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** » «وأنا أشفق من ذلك »

عندما تقرأ هذه الآثار تأمل بكاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه في يوم هو يوم فرح وسرور ، فلا نجد أمير المؤمنين يُبْهت أمام المال أو تأخذه زهرة الحياة الدنيا بل يستحضر سريعاً أثر هذا المال في العلاقات بين الناس ويتذكر توجيه النبى ﷺ أن هذا المال سبب من أسباب العداوة والبغضاء بين الناس . وهذا توجيه نبوى لا يغيب عن بال عمر بن الخطاب لأنه ينظر إلى الأمور بمنظار الإيمان فماذا يعنى المال في هذا المنظور الإيمانى ؟

إنه سبب ، ووسيلة .. ولكنه مبعث للطمع والأنانية ، ومورد للهلاك والشقاق وتأمل مناجاة عمر لربه وبين يديه مال كسرى :

– اللهم إنى قد علمت أن رسولك ﷺ كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك .. وزويت ذلك عنه .

– اللهم إنى قد علمت أن أبا بكر رضى الله عنه كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك .. وزويت ذلك عنه .

– اللهم إنى أعوذ بك أن يكون هذا المال .. مكراً منك بعمر فعمر رضى الله عنه يخشى أن يكون الفتح والفئ بعده استدراجاً وفتنة قال تعالى : (**سَنَسْتَدْرِجُهم من حيثُ لا يعلمون**) ويتذكر عمر قوله تعالى (أيحسبون أنما نُمدّهم به من مالٍ وبنين نسارعُ لهم فى الخيراتِ بل لاَ يشعرُون) .

إنه الفهم الواعى لدور المؤمن فى الحياة وموقفه من متاعها ..

(٦) عن أبى وائل شقيق بن سلمة قال : دخلنا على خباب بن الأرت في مرضه فقال : إن فى هذا التابوت ثمانين ألف درهم ، والله ما شددت لها من خيط ولا منعتها من سائل ثم بكى فقلنا : ما يبكيك ؟ **قال : أبكى أن أصحابى مضوا ولم تنقصهم الدنيا شيئاً ، وإنا بقينا بعدهم حتى لم نجد لها موضعاً إلا التراب ، قال أبو نعيم : رواه أبو أسامة عن إدريس قال : ولوددت**

أنها كذا وكذا كما قال بعراً أو غيره .

تلك حقيقة الدنيا تتجلى أمام خبّاب بن الأرت رضى الله عنه ، ولقد غبط أصحابه الذين مضوا بأجرهم لم تنقصهم الدنيا شيئاً وبكى حسرة على أنه طالت يده من الأموال ما وضعها في التراب ، وربما كان معناه اقتناء الأراضى أو بناء الأبنية .

إن خباباً قد كسب أمواله من حلال ، ولم يشدد عليها خيطاً ولم يمنعها من سائل ، ورغم ذلك أحس بوطأة المسئولية أو المساءلة بين يدى الله تعالى ، فماذا كانت هذه الأموال في نظره رضى الله عنه ؟

« لوددت أنها كذا وكذا - كما قال - بعَراً أو غيره » .. إنها لا تساوى شيئاً في نظره .. فما بال أقوام يكسبون أموالهم من حرام أو ربما اختلط فيها الحرام بالحلال .. ولم يؤدوا حق الله .. فيما يكسبون . وهم بعد ذلك يحرصون أشد الحرص على ما عندهم من مال فيستأجرون الخزائن الحديدية ويشدون عليها المغاليق للحفاظ عليها فما شأنهم حين يقفون مسئولين أمام الله تعالى ؟.

(٨) أخرج أبو عبيد وابن سعد .. وابن راهويه .. عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : دعانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتيته فإذا بين يديه نطع فيه الذهب منثور ، قال : هلم فاقسم هذا بين قومك فالله أعلم حيث زوى هذا عن نبيه صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر فأعطيتُه ، لخير أعطيته أم لشر ؟ ثم بكى وقال : كلا والذى نفسى بيده ما حبسه عن نبيه وعن أبى بكر إرادة الشر لهما وأعطاه عمر إرادة الخير له .

(٩) عند البخارى عن خباب قال : هاجرنا مع النبي ﷺ : نبتغى وجه الله فوجب أجرنا على الله ، فمنا من مضى أو ذهب لم يأكل من أجره شيئاً كان منهم مصعب بن عمير رضى الله عنه قتل يوم أحد لم يترك إلا نمرة ، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطى بها رجلاه خرج رأسه فقال لنا النبى ﷺ : غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الإذخر ، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها » (١)

لقد حجب المال والفئ الكثير عن رسول الله ﷺ وعن أبى بكر رضى الله عنه

---

(١) وقوله أينعت : نضجت - يهدبها : يجنيها.

وفتح الباب واسعاً أمام عمر رضى الله عنه ، ويقف عمر رضى الله عنه أمام هذه الموازنة فما حبس المال عن سابقيه إرادة الشر لهما ، وما أعطيه عمر إرادة الخير له ، وهذا من ورع عمر رضى الله عنه ، كما سبق أن أشرنا ومن تعليمه للأمة فهو نجم من النجوم « بأيهم اقتديتم اهتديتم » وعمر هو من هو فضلا وعدلاً وزهداً .

(١٠) أخرج البخارى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على قتلى أحد بعد ثمانى سنين كالمودع للأحياء والأموات ثم طلع المنبر فقال : **إنى بين أيديكم فرط ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، وإنّى لأنظر إليه من مقامى هذا ، ولكن لست أخشى عليكم أن تشركوا وإنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها ، قال : فكانت آخر نظرة نظرتها الى رسول الله ﷺ .**

(١١) عند البخارى فى الرقاق عن عقبة بن عامر أن النبى ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد .. فذكره .. وفيه « **وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن وإنى قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض - أو مفاتيح الأرض - وإنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكنى أخاف عليكم أن تنافسوا فيها** » .

[١٢] أخرج الشيخان عن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ **بعث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشئ من البحرين ؟ قالوا : أجل** يا رسول الله . **قال : أبشروا وأمّلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلِكُكم كما أهلكتهم** »

إن الرسول ﷺ قد علم ما فى الدنيا من متاع ، وما يثمره هذا المتاع من غرور فى النفس وتعلق في الفؤاد فينتج عن هذا التعلق حرص يودى بنضارة الإيمان في النفس وآثاره في السلوك فيكون الاقتتال عليها والتنافس فيها ، وبقدر إقبالهم عليها تتسع المسافة بينهم وبين حقائق الإيمان ومايستتبع ذلك من

هلاك محتوم ، إن بسطة الدنيا مغرية ، ومتاعها جذاب ومع استغراق الأفراد في لذة الحياة وتموّج المتعة بهم وتغلغلها فى نفوسهم :

* يغيب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .* يسود جو التفاخر والتكاثر .

* تتغلب الأهواء وتتحكم العواطف .* تضعف العقول ويسيطر عليها الخمول فلا تفكر إلا فيما يزكو به الوجدان ولا يتفنن إلا فيما يعمق جوانب اللذة والمتعة .

* يصير العقل بذلك تابعاً للهوى .

* تنقلب النماذج الإنسانية مسوخاً شائهة ، ويصير من يسبق إلى اللذات ويغلب جانب الشهوات هو القدوة والمثل الأعلى . * يؤخذ من الدين ما يبرر الشهوة ويحبب في الدنيا وتصير أحكامه مبررات للشبهات كى يأخذ بها الراغب فيها

وهذا بعض ما يحمله حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في التحذير من أخطار الدنيا وبسطتها .

وهذه فتنة تقتل الأجيال ، وتفنى الأمم ، وتهزأ بالعقيدة القويمة إذ إنها مدخل مغرٍ وباب خادع ، فهو إذن أخطر من الشرك بالله- والعياذ بالله - لأن المشرك معروف حاله وصاحب الدنيا مجهول الأحوال ، والمشرك نموذج ظاهر الهلاك أما صاحب الدنيا فنموذج خادع لا يتقيه إلا من عصمه الله من الفتن ، وقد قرن النبي ﷺ بسطة الدنيا والتنافس فيها بالشرك تحذيراً منها وتذكيراً بخطرها .

(١٣) عن أبى أمامة عن النبي ﷺ : « **عرض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً قلت لا يارب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً (وقال ثلاثاً أو نحو هذا) فإذا جعت تضرعتُ إليك ذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك** »(١)

(١٤) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً وقنّعه الله » (٢)

(١٥) عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **طوبى لمن هُدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنَع** »(٣)

---

(١) قال الترمذى : حديث حسن .

(٢) قال الترمذى : هذا حديث صحيح .

(٣) قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح وقد مرت الأحاديث الثلاثة .

إن الدنيا ملهاة عن الآخرة ، وكلما استزاد الإنسان منها بَعُدَ عن عبوديته لله تعالى ، والرسول ﷺ يضرب لنا المثل بنفسه وقد عرض عليه أن يكون غنياً ، بل تتحول بطحاء مكة ذهباً ولكنه يأبى إلا أن يعايش الحياة بشتى أحوالها (أشبع وأجوع) فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، والتضرع قرب من الله وإحساس بالحاجة ، فالعبد لا يقوم بذاته بل يقوم بفضل سيده .والمؤمن فقير إلى الله متعلق القلب بمولاه .

أما عند الشبع فيكون للشكر دوره ومجاله ، وفي الحديثين التاليين للحديث الأول ثلاث ركائز للفلاح .

* الإسلام * الرزق الكفاف : أي بمقدار الحاجة .* ثم القناعة والكف عن الطمع.

(١٦) عن أبى ذر عن النبى ﷺ **قال : « الزهادة في الدنيا : أن لا تكون بما في يديك أوثق مما فى يدى الله ، وأن تكون في ثواب المصيبة -إذا أنت أصبت بها- أرغب فيها لو أنها أبقيت لك »**(١)

الثقة المطلقة بالله تعالى . حتى أنك تكون بما عند الله أوثق مما في يدك .

ثم ثواب المصيبة والرغبة فيه أحب إليك من بقاء النعمة هذان الأساسان بهما يكون الإنسان زاهداً ، فالزهد ليس حب الفقر وترك النعم ، ولكنه سمو الإيمان والثقة فى الله تعالى والرغبة في الثواب .

---

(١) قال الترمذى : حديث غريب وفيه عمرو بن واقد منكر الحديث .

فضل الرضا بعطاء الله

(١) عن أبى العلاء بن الشخّير : حدثنى أحد بنى سليم - ولا أحسبه إلا قد رأى رسول الله ﷺ « **إن الله تبارك وتعالى يبتلى عبده بما أعطاه ، فمن رضى بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسعه ومن لم يرض لم يبارك له .** »(١)

إن الله تعالى يبتلى عبده بما أعطاه كما قال تعالى (**فَأَمَّا الإنسانُ إِذَا ما ابْتَلاه ربُّه فأكْرَمه ونعَّمَه فيقولُ ربى أكْرمنِ ، وأمَّا إذا ما ابْتَلاه فَقَدَر عليه رزْقَهُ فيقولُ ربِّى أهانَنِ ، كلا ..**)(٢)

فإذا رضى العبد بما قسم الله عز وجل له كان نصيبه البركة والسعة فيصير القليل كثيراً ، والصعب سهلاً .. لأن الله يجعل للعبد حينئذ غناه فى قلبه ، أما أولئك الذين لا يرضون بما قسم الله تعالى لهم ، ويسخطون على عطائه سبحانه وتعالى فإن الله ينزع البركة من أرزاقهم فيزداد نهمهم ويتضاعف همهم وغَمُّهم .

(٢) عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « **من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه تعالى ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله تعالى ، ومن تضعضع لغنى لينال مما فى يديه أسخط الله عز وجل ومن أعطى القرآن فدخل النار فأبعده الله** »(٣)

إن الدنيا تافهة بل لقد قرأنا عن رسول الله ﷺ ما معناه : (الدنيا ملعونة .. ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو عالماً أو متعلماً) كما قرأنا (أن الله تعالى يحمى عبده المؤمن الدنيا كما يحمى أحدكم مريضه الماء وهو يحبه) فلماذا الحزن على الدنيا ؟

والحديث - بين أيدينا - يحذر المؤمنين كيلا يحزنوا على الدنيا فمن أصبح

---

(١) رواه أحمد فى مسنده .

(٢) سورة الفجر : ١٥ ـ ١٧ .

(٣) قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الصغير وفيه وهب بن راشد البصرى صاحب ثابت وهو متروك .

حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه ، فالمؤمن لا يحزن على ما فاته من الدنيا ولا يشكو ربه ، ولا يتخاذل لسلطان لينال مما في يده من مال ، لأن المؤمن طامع فيما عند الله لا فيما عند الناس .

(٣) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسدّ فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل** » (١)

اشتد بالناس الصراخ ، وساءت الأحوال ، وجفّتْ ينابيع الرضا فلا تقابل إلا شاكياً قلة حظه في الحياة ناعياً ما هو فيه من ضيق باكياً على ما سلف من أيام كان فيها يعيش هانئاً هادئاً .

تلمس شكوى الغني في غناه ، وتبرم الشباب في شبابه . وكآبة الفقير في فقره ، فالرواتب لا تكفي ، والغلاء يجتاح الإمكانيات فلا ترى إلا شقياً أو محروماً ، ويزداد ذلك في الوقت الذى تقوم فيه الأحزاب ببرامج الرفاهية ، وتعد الحكومات شعوبها بالرخاء عاماً بعد عام ، فصار ما بيد الأفراد زهيداً ،، والكل يحتاج إلى المزيد .

والحديث الذى بين أيدينا ينبه إلى باب من أبواب الإيمان ، فإذا أحس الإنسان بالحاجة والفاقة فلينزلها بخالقه ، ويقف بحاجته على باب ربه خالقه ورازقه فهو وحده القادر على أن يقضيها له ، أما إذا أنزلها بالناس فإنه يكون قد أخطأ الصواب إذ كيف ينزل حاجته بمحتاجين مثله ؟ وكيف يطلب من عاجز أن يساعده ؟ إذا أنزل المحتاج حاجته بالناس لم تقض أما إذا أنزلها بالله فيوشك أن يعجل الله له بالفرج .. والحديث يريح المؤمن كثيراً من هؤلاء الذين يسعدون بأحزان غيرهم ويشمتون في الآخرين ويتلذذون برؤية مصائب غيرهم . فما أحسن أن ينزل المؤمن حاجته بربه .

(٤) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « **من جاع أو احتاج فكتمه الناس ، وأفضى به إلى الله كان حقاً على الله أن يفتح له قوت سنة من حلال** » (٢)

---

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٢) قال الهيثمي : رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه إسماعيل بن رجاء الحصني ضعفه الدارقطني .

تذكرنى هذه الأحاديث أبياتاً من الشعر فيها : .

لا تسألن بنىّ آدم حاجة ... وسل الذى أبوابه لا تحجب

فالله يغضب إنْ تركتَ سؤاله ... وبنىّ آدم حين يُسألُ يغضبُ

فإنك إن كتمت حاجتك عن الناس صرت كبيراً ، غنياً ، وقد جاء غناك بالتجائك إلى الله تعالى . قال عزّ وجل : (**من كان يُريدُ العزةَ فلله العزةُ جميعاً**) (فاطر : ١٠) وقال : (**ولله العزةُ ولرسولهِ وللمُؤْمِنينَ**) (المنافقون : ٨)

ولقد جاءتهم العزة بالعبودية الصادقة لله تعالى ، ومن كمال العبودية لله سبحانه أن تكتم حاجتك عن الناس وتفضى بها إلى الله تعالى ، فعنده خزائن السموات والأرض ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

(٥) عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما صبر أهل ثلاثة على جهد إلا أتاهم الله برزق** »[١]

الصبر مفتاح الفرج فهو دلالة الإيمان واليقين ، بل إنه نصف الإيمان ، وهو وسيلة من وسائل القرب من الله تعالى ، وشكوى الحال تناقض الصبر ، وتناقض إيمان المؤمن بالقضاء والقدر ، وهو أساس الإسلام لأن الصبر انقياد العبد لله فى أشد الحالات ، مما يوجب على العبد الشكر لله فى حالات الرخاء ، والآيات التالية تقف بالمؤمن على جانب من جوانب الحياة وهو ضرورة الابتلاء فى هذه الحياة :

(٦) (**ولنَبْلونكم بشئ من الخوفِ والجُوعِ ونقْصٍ من الأمْوالِ والأنفُسِ والثمرات وبشّر الصَّابِرينَ**) [٢]

وجوانب الابتلاء :

(أ) شئ من الخوف .. وهو اليسيرمنه ورغم ذلك ترى الناس فى فزع دائم .. فما بالنا لو سلط الله علينا الكثير منه .

(ب) شئ من الجوع .

---

(١) قال الهيثمى : رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا .

(٢) البقرة : ١٥٥ .

(جـ) نقص من الأموال .

(د) ونقص من الأنفس .

(هـ) نقص من الثمرات ..

والبشرى فى النهاية للصابرين ولنتأمل الآية التالية :

(٧) ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾(١)

وهذه الآية كما نرى تشير إلى بعض من جوانب الابتلاء وخصت بما يصيب الإنسان في نفسه وماله ثم ما يصيبه في عقيدته والمؤمن الصابر على هذا الابتلاء مؤمن قد تربت عنده العزيمة :

* يصاب المؤمن بشئ من الخوف فيصبر فتكون له حسن العاقبة وينال الأمن عند الله :

* ويُبتلى بشئ من الجوع . * وتنقص الأموال والثمرات

* ويصاب فى نفسه .

* ثم تكون الطامة الكبرى حين يلقى العناء من الذين أوتوا الكتاب ومن المشركين ، فيؤذونه ويهاجمونه ، ويتربصون به ، والأذى الموجه بالكلام لابد أنه يتصل بالعقيدة إذ لا يبالون أن يهاجموا الرسول ﷺ ويطعنوا في القرآن لأنهم لا يؤمنون بهما .

وهذا ما نلمس الكثير منه اليوم حيث تألبت قوى الكفر وأخذت تكيد للمسلمين ، وتحاول أن تردهم عن دينهم ، وسلاح المواجهة يتلخص فى : **أمرين الصبر ثم التقوى** ، فتكون النتيجة : عزم الأمور ، فهما أساس العزيمة وقوة المؤمن .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٨٦ .

الخيال والظل

تأملت في أمر المرآة .. وهو أمر عادى لكل إنسان .. بل لكل طفل لا تلفت انتباه الكثيرين فقد تعودها الناس وألفوها .. حتى أن أحداً لم يعد يتساءل عن الحقيقة فى أمرها ..

زجاج مصقول ، يستطيع أن ينقل إليك عالماً بأكمله ..

شخصك يتكرر عشرات المرات ، أمامك و بلا أى جهد تنعكس على المرآة حقول القطن المزروعة بلا حدود ..

ترى فيها مقدار ما تستطيع أن تراه .. فما معنى ذلك ؟

إن رؤية الأشياء فى المرآة لها مغزى يمكن أن يستعين به المؤمن للسمو بنفسه ، والبعد عن خداع البصر .. أمامك - في المرآة - حقول .. ولا حقول .

أمامك في المرآة - شخص ولا شخص .. أمامك كل شئ ولا شئ ..

يكفى أن تغطى المرآة .. أو تنكسر المرآة لتنهار الصور ....

وهذا بالضبط معنى الدنيا ..

ترى أمامك الأشياء وتتضاعف المرئيات .. ثم تضيع الأشياء وتنهار المرئيات..

إنها تنهار فقط من حياتك .. ولا تنهار من حياة غيرك فأنت وحدك الذى كسرت مرآتك ..

أما الآخرون فلا زال أمامهم متسع لمشاهدة الصور والتلهى بها حتى إذا انكسرت المرآة .. زالت المناظر .. وظهرت الحقيقة ، وتبين لهم الأمر ..

تبين أن المرآة .. زالت .. وتبين له أن المكان الذى شغلته المرآة ليس إلا مجرد شق ضئيل ..

لا يتعدى عشرة سنتيمترات - ... ويندم . إذ تخيل أن المساحة ممتدة .. امتدادها في المرآة . ولكن زال الامتداد حين انكسرت المرآة ..

لا حول ولا قوة إلا بالله ....

إن التحذيرات تتوالى .. فأنت أمام المرآة .. وأمام زيف فلا تنخدع بالزيف ..

وإياك أن تظنّ أنه الحقيقة .

= ومن التحذيرات أن المرآة لا تنكسر فجأة في كثير من الأحيان ..

= إن المرآة .. تبدأ مصقولة جيدة .. تنعكس عليها الأشياء في نضارة وبهجة .. ومع الاستمرار .. وتطاول الزمان ، يخبو ضوؤها .. ويصفر لونها .. والأشياء التى كانت منذ فترة تبدو بهيجة تعود إلى الذبول والاصفرار .

فتحول الأشياء عن حالها ..

وما كان يبدو جميلا مصقولا صار أمره إلى الذبول والانحدار ..

* * *

وتأمل نفسك وذاتك ، تر العجب ..

ففى صباك وشبابك تجد كل ما عندك .. وما حولك فيه الجمال والحيوية والبهجة ..

إنك تحس في نفسك الإقبال على الحياة .. والرغبة فى مظاهرها .. فالمرآة لا زالت مصقولة .. والمظاهر بهيجة فإذا ما تقدم الزمن .. وتوغل الإنسان في العمر بدأت المرآة .. تصفر .. وبدأت المظاهر تضمحل .. وبدأ الزمن يضيق بك أو بدأت تضيق به ..

إننى لا أقول إن تعلقك بالمرآة قد خف أو رغبتك في الحياة اضمحلت ، كلا ،ولكن الخيوط وَهَتْ .. والبصر قَلّتْ حِدّته .. فبدأ الأنسان يتعلق بالماضى بمقدار عجزه عن رؤية المستقبل وبدأ يحن إلى ما سلف من عمره بمقدار ضيقه بواقع حياته .. * لم يعد للطعام مذاق كمذاقه أيام الصبا والشباب ..

* لم تعد للأماكن بهجة .. مثل بهجتها فيما مضى ..

* إن الحرص يزداد .. والقدرة تتدهور

* حب الدنيا يشتد .. والقدرة على تذوقها يَقِلُّ ويضعف

واقرأ قوله ﷺ : اغتنم خمساً قبل خمس ..

شبابك قبل هرمك وصحتك قبل مرضك

وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك

وحياتك قبل موتك .

نسأل الله العفو والعافية

خاتمة

فى النهاية أرى واجباً علىّ أن أقف معكم قليلاً أمام قول الإمام علىّ رضى الله عنه وكرم الله وجهه :

« من هوان الدنيا على الله : أنه لا يُعْصَى إلاّ فيها ، ولا يُنَالُ ما عنده إلا بتركها »

فإن الله تعالى لم يسمح بمعصية إلا على الأرض :

* فلما رفض إبليس السجود لآدم وعصى ربه قال له ربه :

« فاهبطْ منها فما يكُونُ لكَ أنْ تتكَبَّر فيها » (الأعراف : ١٣)

* ولما أكل آدم من الشجرة بغواية إبليس أمره ربه بالهبوط وأخرج من الجنة

* بل إن أهل النار سيكونون فيها طائعين خاضعين لا يتمردون وإن كانوا سيصرخون ، ويدعون بالويل والثبور والهلاك ، وسيكون استعدادهم للطاعة واضحاً فيقولون : **« ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً »**

(السجدة : ١٢)

ويقولون **« ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون »** (المؤمنون : ١٠٧)

ولا ينال ما عنده – تعالى – إلا بتركها : فمن أراد الآخرة قلت علائقه بالدنيا كما قال ﷺ في الحديث الذى مرّ بنا في سياق هذا البحث **« من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه »**

نسأل الله العفو والعافية والنجاة من النار .....

والحمد لله رب العالمين .

فهرست الموضوعات

رقم الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

الأزهــــر
مجمــع البحــوث الاســـلامية
الادارة العــــامة
للبحــوث والتــأليف والترجمــة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

السـيد / محمد عبد الرحمن عوض

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ــ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)

تأليفكم ....

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مــانع من طبعــه على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبـوية الشريفـة .

واللــه المـوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مدير عــام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

تحريرا في ٢٦ / ٤ / ١٤١٣ هـ
الموافق ٢٩ / ١٠ / ١٩٩٢ م

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٩٣/٨٥٤٦
الترقيم الدولى
٩٧٧ – ٥٠٣٥ – ٣٧ – ٦

هذا الكتاب

* الدنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لاعقل له ..
* لماذا التناحر على زيفها ؟
* ولماذا التعلق بها ؟
* الدنيا مطية للآخرة ومزرعة لها.
* وكثيرا ما يدعو القرآن إلى التنبه لهذه الحقيقة حتى لا تضيع حياة المؤمن هباء .
* فكيف يتعامل المؤمن معها ؟
* وكيف يجعلها مطية للآخرة ؟
* وكيف يربح فيها الرضوان ؟
* الباب واسع أمام المؤمن .. ليتدبر ويتذكر .
* وهذا الكتاب يقدم لك أبواباً كثيرة منها خطر حب الدنيا ، وضرورات الحياة ، والزهد فيها وخطر الترف وفضل الرضا بعطاء الله وغير ذلك من أبواب تهم المؤمن ..

الناشر

دار الكتب العلمية
للنشر والتوزيع
٣٠ شارع السبع من عسران
ترعة السواحل - امبابة ت : ٣٤٤٠٩٧٩

ISBN 977 - 5035 - 35 - X

مكتبة رجب
المكتبة : ١٧ شارع البيدق – العتبة
ت : ٣٩٠٥٩٤٣